
القراءة المثمرة
مفاهيم وآليات

الطَّبْعَةُ السَّادِسَةُ
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com
الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) - فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كتب قيمة
(٢٧)

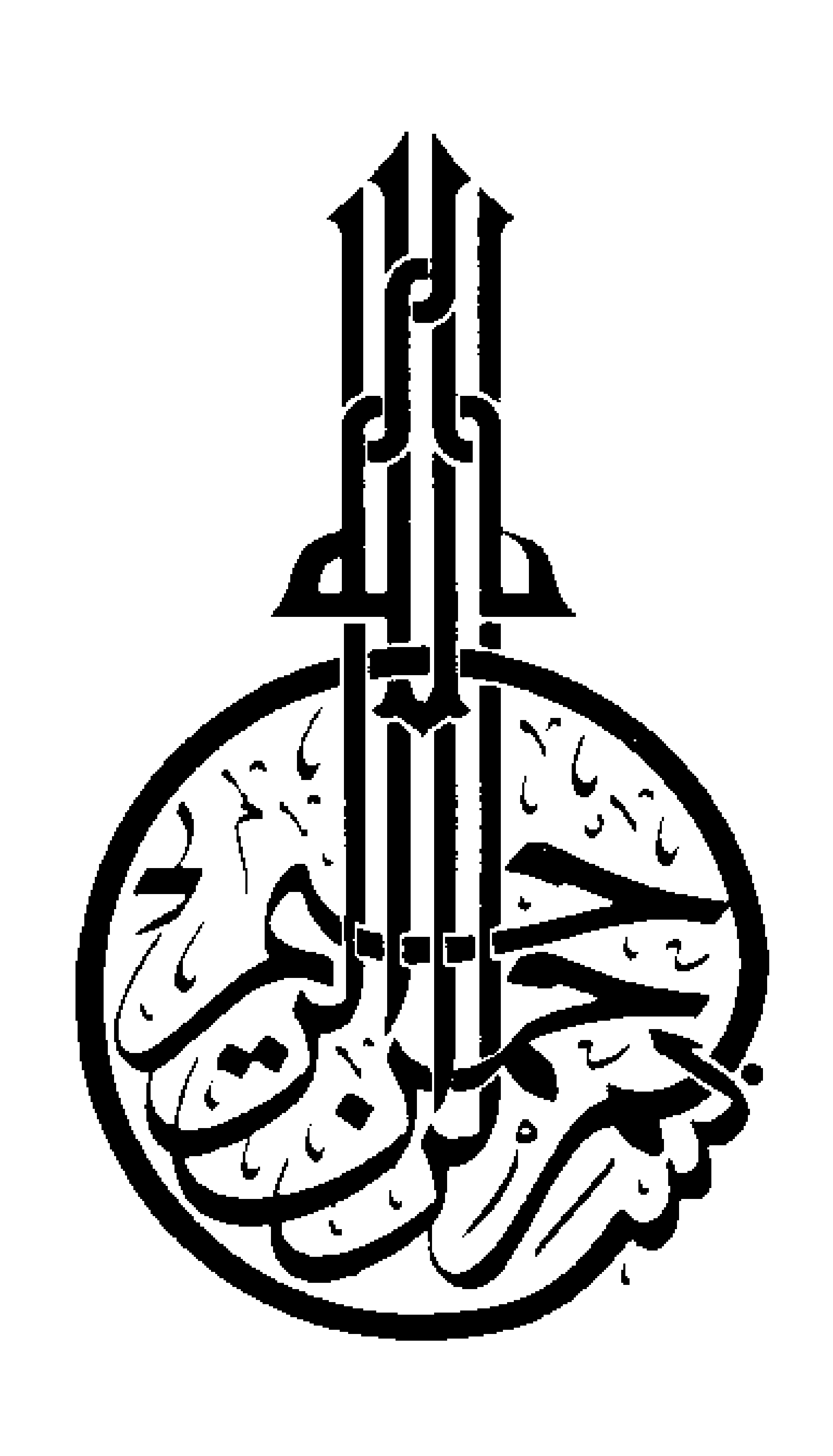
القراءة المثمرة

مفاهيم وآليات

بقلم
أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم
دمشق

الدّار الشاميّة
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدّمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم. والصلاة والسلام على إمام الهدى ونبي الرحمة، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين. وبعد:

فقد كان لأمة الإسلام تاريخ حافل بالإنجازات الكبرى في شتى المجالات، وهو على درجة من الوضوح تغنيه عن أي شرح... والمتابع لتاريخ النمو الحضاري في الإسلام يلحظ بوضوح أنه كان في توتره مقترناً دائماً بـ (القراءة) وحب العلم والشغف بالمعرفة، وكثرة العلماء والباحثين في ميادينها المختلفة، مما لا يدع مجالاً لأي شك في أن الولع بالمزيد من الاطلاع، واصطحاب الكتاب هو أحد الحلول المهمة للأزمة الحضارية التي تعاني منها أمة الإسلام.

وإذا أمعنا النظر في واقع الأمم الصاعدة اليوم؛ لمسنا

للوهلة الأولى أنها اعتمدت النهوض بالتعليم وتيسير سبل التثقف أساساً لتقدمها الحضاري في جوانب الحياة كافّة. وفي المقابل فإن الشعوب التي توصف اليوم بأنها متخلفة، تشترك جميعاً في أنها لا تملك بنية معرفية صحيحة، كما أن بين معظم أفرادها وبين الكتاب نوعاً من الجفاء، ونوعاً من الخلل في أسلوب التثقف، وفي الحساسية نحو المعارف الجديدة.

سيكون من المؤسف أن تحتاج أمة، أول كلمة نزلت في كتابها ودستورها الثقافي كلمة (اقرأ) إلى من يحثها على القراءة، ويكشف لها عن أهميتها في استعادة ذاتها وكيانها!

ومع هذا، فإن علينا أن نواجه مشكلاتنا بواقعية وشجاعة، ونكف عن التغني بأمجاد الآباء والأجداد، والإشادة بانتصارات لم نخض معاركها.

ولعل الله ـ جل وعلا ـ يقدِّر لهذه الرسالة الصغيرة أن تشكل إسهاماً متواضعاً في تحسين موقفنا من الكتاب، وتعاملنا معه. إنه سميع مجيب.

المؤلف

أ.د. عبد الكريم بكّار

التعلُّم مدى الحياة

إن فَطْر الله ـ جل وعلا ـ لبني الإنسان على التساؤل وحب الاستكشاف أتاح لهم أن ينموا كينوناتهم المعرفية، وأن يندفعوا دائماً نحو معرفة المزيد دون أن يجدوا أي حدود للتشبع أو الارتواء. كان العلم في القديم يقوم على (النقل)، فكان التعلم والتعليم عبارة عن أفعال مقترنة بالزمان؛ حيث يتِمّان وفق تتابع زمني، وحين يموت العالم، فمن الممكن أن يذهب معه أفضل ما يعرف.

وحين صار للغات أبجديات، وتمتع الإنسان بنعمة الكتابة انتقلت المعرفة من حيز الزمان إلى حيز المكان، وصار الحفظ والتوثيق والاسترجاع والنشر، مما هو متاح على أوسع نطاق، وبذلك أمكن للناس أن يطوروا معارفهم على نحو مدهش، وصار للبشرية بذلك تاريخ جديد!.

إن هناك دواعي كثيرة، تفرض على الواحد منا أن يتعلم، ويقرأ، ويكتسب الخبرات مدى الحياة، منها:

١ ـ إن الذي يدعو الإنسان إلى مزيد من التعلم، هو العلم نفسه، إذ إنه كلما زادت المعرفة، اتسعت منطقة المجهول. والتقدم نفسه يعمل على زيادة حاجة الإنسان الشديدة إلى المعرفة؛ حيث إن التوغل في حقول المعرفة، يتيح إمكانات ومجالات جديدة، ويولِّد دوافع جديدة للتقدم الأوسع نطاقاً.

المثقف الذي يرغب في الحفاظ على قيمة ثقافته وكرامتها، مطالَب بأن يعيد تكوين ثقافته على نحو مستمر ومتجدد. وعندما يشعر بالاكتفاء بما لديه من معلومات، سيضع نفسه على شفا الانحطاط. وإذا كان متخصصاً فإن أمواج القفزات العلمية في تخصصه ستقذف به نحو الشاطئ، ليجد نفسه في النهاية خارج التخصص.

الوضع الذهني للرجل متوسط الثقافة ـ فضلاً عن الضعيف ـ يسف وينحط بسبب ما يحتشد من النظريات والأفكار والمذاهب التي لم يعد بإمكانه المساهمة فيها، حتى لو أبدى اهتماماً بها.

إن جهلنا ينبسط مع تقدم المعرفة، كما ينبسط سطح التَّماس لكرة ما مع العالم الخارجي عندما يكبر قطرها، وهذا يشكِّل تحدياً متزايداً لكل قارئ.

٢ ـ لم يكن لدى الناس قديماً إحساس قوي بارتباط كسب الرزق بمدى ما يحصّلونه من علم، لكن الوضع قد تغير اليوم، حيث تتضاءل على نحو متصاعد المهن والوظائف التي يمكن للأميين ومحدودي الثقافة الاضطلاع بها. وسوف تجد الأمة التي لا يحسِّن أبناؤها من مستوى معارفهم ـ على نحو مستمر ـ نفسها مؤهَّلة لأن تكون تابعة للأمم الأخرى، ومستغلَّة لها على كل المستويات!.

٣ ـ إن ما نمتلكه اليوم من معارف وخبرات، لا يتمتع بقيمة مطلقة؛ فسكان الأرض يشكلون عالماً واحداً، وأهمية كل جزء من أجزاء هذا العالم، تنبع دائماً من قدرته على الصمود والمنافسة وحل المشكلات، وما يمتلكه من وزن في الساحات العالمية.

وشيوع الأمية الأبجدية والحضارية، قد جلب على أمة الإسلام مشكلات، هي أكبر بكثير مما نظن؛ وليس ذلك على صعيد المعيشة والإنتاج فحسب؛ وإنما على صعيد فهم الإسلام أيضاً؛ فالإسلام بما أنه بنية حضارية راقية، لا يتجلى على نحو كامل إلاّ عبر تجربة معرفية وحضارية رائدة؛ مما يعني أن

التخلف الذي نعاني منه قد حال بيننا وبين رؤية المنهج الرباني على النحو المطلوب.

٤ ـ إن العقل البشري، يميل دائماً إلى تكوين عادات ورسم أطر لعمله، وهي مع مرور الوقت تشكل نوعاً من البرمجة له. البيئة ـ بكل أنواعها ـ هي التي توفر مادة تلك البرمجة. وكلما كانت ثقافة الإنسان ضحلة، وكانت مصادر معرفته محدودة، ضاقت مساحة تصوراته، وأصبح شديد المحلية في نماذجه ورؤاه، عاجزاً عن تجاوز المعطيات الخاطئة التي تشرَّبها من مجتمعه. والقراءة الواسعة، والاطلاع المتنوع هو الذي يعظِّم الوعي لديه من خلال المقارنة وامتداد مساحات الرؤية. وقد كان علماء السلف، لا يثقون بعلم العالم الذي لم يرحل، ولم يغبِّر قدميه في طلب العلم، إدراكاً منهم لمخاطر البرمجة الثقافية القائمة على معطيات محلية محدودة.

٥ ـ التدفق الهائل للمعلومات، وتراكم منتجات البحث العلمي في اتساع مستمر؛ والنتيجة المباشرة لذلك هي تقادم ما بحوزتنا من معارف ومعلومات. وتفيد بعض التقديرات أن نحواً من ٩٠٪ من جميع (المعارف العلمية) قد تم استحداثه في

العقود الثلاثة الأخيرة. وسوف تتضاعف هذه المعارف خلال نحو من ١٢ سنة. ويقول أحد الباحثين: إن على المتخصص المعاصر أن يضع في حسبانه أن نحواً من ١٠ ـ ٢٠٪ من معلوماته قد شاخ، وعليه أن يجدده. ويرى أحد الباحثين أن أعراض الشيخوخة تعتري المعلومات بنسبة ١٠٪ في اليوم بالنسبة إلى الجرائد، و١٠٪ في الشهر بالنسبة إلى المجلات، و١٠٪ في السنة بالنسبة إلى الكتب.

إن تقادم المعلومات يتجلى في صور شتى، فتارة في ظهور زيفها أو عدم دقتها، وتارة يتجلى في عدم ملاءمتها للخطط الجديدة، وأحياناً بتحول الاهتمام عنها؛ لأنها لم تعد ذات قيمة في البناء المعرفي، وأحياناً بقراءتها قراءة جديدة، أي: إنتاجها مرة أخرى على نحو يبعدها عن مضامينها الأولى...

والعلاج لذلك كله دوام الاطلاع والمتابعة؛ حتى لا يتدهور ما لدينا من معرفة، وحتى لا نغرق في الضلالات والأوهام التي تنتشر باعتبارها مفرزات جانبية للتقدم العلمي.

القراءة ومصادر المعلومات الأخرى:

عصرنا عصر انفجار المعرفة؛ فالأعداد الهائلة من العلماء الذين يشتغلون بالبحث العلمي، والوسائل المتطورة في حفظ المعلومات ونقلها وبثها، والتواصل الكوني الفريد والمتزايد، كل ذلك جعل الناس مغمورين بالأخبار والمعلومات والمفاهيم التي ترد إليهم كل لحظة من شتى أصقاع الأرض.

هذه الوضعية حملت الناس على طرح سؤال حول ما تبقّى من وظيفة للقراءة والكتاب، كما حملت كثيراً من المثقفين على الجهر بمرّ الشكوى من هجر الكتاب، والافتتان بما تعرضه وسائل الإعلام المختلفة من برامج ومواد ثقافية متنوعة.

والحقيقة أن لتلك الشكوى ما يسوِّغها؛ إذ إن هناك مؤشرات واضحة إلى إعراض الناس عن القراءة واقتناء الكتاب، وإلى إقبالهم على قضاء أوقات طويلة أمام الوسائل الإعلامية المختلفة. ويكفي أن نعلم أن متوسط ما يُطبع من معظم الكتب في البلاد العربية لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسخة للكتاب الواحد، وهذا العدد المحدود لا ينفد في الغالب في أقل من ثلاث

سنوات عادة؛ على حين تتجاوز أرقام التوزيع في الدول المتقدمة ذلك بكثير، بما لا يدع أي مجال للمقارنة!.

إن وسائل الإعلام تقدم برامج على درجة عالية من الزخرفة والإتقان؛ مما يعطيها جاذبية عالية. فإذا أضفنا إلى ذلك انعدام البواعث على القراءة وانعدام التقاليد الثقافية المحبِّذة لاقتناء الكتاب واصطحابه؛ أدركنا وضعية القراءة في عالمنا الإسلامي!.

إن وسائل الإعلام تقدم معلومات متشظية، قلما تتصل بالحاجة المعرفية الحقيقية للمتابع لها، كما أن المعروف أن المعلومات الكثيفة حول أي شيء قد تقف حائلاً دون فهمه على الوجه الصحيح، تماماً مثل الحقائق والمعلومات القليلة عنه؛ فللعقل طاقة محدودة على التحليل والتصنيف والغربلة لما يرد عليه، وحين يزيد على طاقته، فإنه يربكه ويشتته.

من وجه آخر فإن وسائل الإعلام الحديثة، قد سببت أضراراً بالغة للشعور بالحاجة إلى التفكير؛ فكتّابها ومعدّو برامجها قاموا بذلك نيابة عن المتلقين. إن مشاهد (التلفاز) ومستمع الإذاعة وقارئ المجلة أو الجريدة... يتلقى مركَّباً

كاملاً من البيانات والإحصاءات المنتقاة بعناية، والمصوغة بأسلوب بلاغي بارع؛ مما يدهش القارئ، ويدفعه إلى نوع من الاستسلام لها، والانقياد إلى توجهاتها، دون القيام ببذل أي جهد شخصي؛ وهذا كله مغاير لمتطلبات التطور العلمي والاجتماعي الحديث، والذي يتطلب منا القدرة على الإبداع، وترشيد المحاكمة العقلية أكثر من الانشغال باستيعاب بعض مفردات المعرفة واستظهارها.

هذا كله لا يجعلنا ننكر أن الدفق الإعلامي والمعلوماتي الهائل، قد أوجد نوعاً من الاستنارة العامة، ورفع درجة الوعي لدى الناس، كما أنه ملكهم الكثير من المعلومات العامة.

إن الهامش الذي يفصل بين التسلية وبين التثقف الحق هامش ضيِّق، ومن السهل أن يكون ما نستمع إليه ونشاهده ضرباً من ضروب التسلية، وتزجية الوقت، ونحن نظن أننا نتعلم.

وأعتقد أن الكتاب ما زال هو الوسيلة الأساسية للتثقف الجيد، حيث نستطيع أن نمارس حريتنا كاملة في اختيار ما نحتاج إليه، وهو لا يحتاج إلى آلات مساعدة للاطلاع عليه، كما أنه رخيص الثمن إذا ما قورن بغيره.

ولســت مـع هـذا أميـل إلـى التقليـل مـن شـأن مصـادر المعلومات الأخرى؛ فالمهم دائماً أن تكون أهدافنا في التثقف والارتقاء المعرفي واضحة، ثم نبحث عن الأدوات والوسائل التي تبلغنا إياها.

* * *

من أجل القراءة

إذا كانت القراءة أهم وسيلة لاكتساب المعرفة، وإذا كان اكتساب المعرفة أحد أهم شروط التقدم الحضاري؛ فإن علينا ألا نبخل بأي جهد يتطلبه توطين القراءة في حياتنا الشخصية، وفي حياة الأمة عامة؛ فالمسألة ليست كمالية ولا ترفيهية، وإنما هي مسألة مصير. لا ريب أن جعل (القراءة) إحدى مفردات أعمالنا اليومية، لن يكون يسيراً؛ حيث يقتضي تغييراً جوهرياً في سلوكاتنا وعاداتنا، كما يتطلب توفير المال والوقت، وقبل ذلك الأهداف والدوافع. ومع كل ما في ذلك من عناء ومشقة، إلا أنه لا خيار آخر أمامنا، وعلينا ما دمنا نود أن نحيا الحياة التي تليق بكرامة المسلم وغايات وجوده على هذه الأرض أن نتحمل تكاليف ذلك عن طيب خاطر.

وإليك أهم ما أظن أن علينا أن نقوم به من أجل إشاعة ثقافة (اقرأ)، وذلك على النحو التالي:

١ ـ الدافع :

زوّد البارئ ـ جل وعلا ـ الإنسان بعدد من القوى الفطرية (الغرائز) التي تدفعه إلى سلوك معين، وترسم له أهدافه وغاياته، من أجل تحقيق توازنه الداخلي، وإعداده للتكيُّف مع البيئة الخارجية. وتظل حياة المرء معلقة على الاستجابة لعدد من الدوافع، وتلبية عدد من الحاجات الأساسية؛ فيستحيل استمرار حياة الفرد من دون أخذ الحد الأدنى من كفايته من الطعام والشراب والهواء.

وهناك إلى جانب هذه حاجات ودوافع، لا تتوقف حياة المرء على تلبيتها، وإنما يتوقف عليها تحسين نوعية الحياة، والارتقاء بالإنسان وتوفير الهناء له، مثل الحاجة إلى التقدير والأمن وقسط من المعرفة عن الوسط الذي يعيش فيه، والشعور بالتأنق . . . مما يصنف عادة مع الحاجات الثانوية.

ولم يصادف الإنسان مشكلة في التعامل مع دوافعه الأساسية، لكن مشكلته الأساسية في الاستجابة لدوافعه الثانوية، فالتخلف الحضاري، يجعل المرء مشغولاً بتلبية حاجاته الأساسية، ويجعل حسه وحدسه ضعيفاً نحو كل

ما يحسِّن نوعية حياته، ويدفع به في مراقي الكمال. وهذا هو السبب الجوهري في انعدام الدافع نحو القراءة لدى كثير من المسلمين. وحين يقطع المجتمع شوطاً في طريق الحضارة، فإنه يمارس ضغوطاً مادية وأدبية على أفراده من أجل أن يرفعوا من سوياتهم، من خلال السعي إلى الكمال والاهتمام بما يعدُّه مجتمع متخلف أمراً هامشياً.

وهذا ما نجده واضحاً في المجتمعات الإسلامية الأولى التي سطَّرت من المآثر في تعشُّق المعرفة، والسعي في سبيل تحصيلها، ما لم يكن معهوداً في العالم القديم، حيث نظرت إلى العلم على أنه من أفضل القربات إلى الله ـ تعالى ـ كما أنها رأت فيه أفضل سبيل إلى بلوغ القمة. وهذا ما نجده اليوم في المجتمعات المتقدمة.

وإذا كان الفكاك من ربقة التخلف الحضاري هو الحل النهائي لمشكلة العزوف عن القراءة، فإن هناك جهات عديدة بإمكانها أن تدفع بالناشئة ـ خاصة ـ خطوة إلى الأمام في هذا الاتجاه، مثل الأسر المتعلمة والمدارس والجامعات والنوادي الأدبية والمكتبات العامة والجمعيات الثقافية... وأعتقد أن كل مدينة من مدننا جديرة بأن يكون فيها جماعة أو جمعية،

مهمتها التشجيع على القراءة، والمعاونة على توفير الكتاب، على غرار جمعيات أصدقاء المرضى وحماية البيئة . . .

إن الخطوة الأولى تكمن في إيجاد الدافع نحو القراءة، وسوف ننجح في ذلك ـ بإذن الله ـ إذا أوليناه ما يستحقه من الجدية والاهتمام.

٢ ـ تكوين عادة القراءة :

البدايات دائماً شاقة، وأشق مراحل الطريق هي المرحلة الأولى، وكثير من الناس يجد صعوبة بالغة عند البدء في أي عمل أو مشروع؛ وذلك لأن نتائج جهده في البداية تكون ضعيفة، كما أن استفادته من الوقت تكون غير مرضية؛ فالواحد منا يشعر أنه أمضى وقتاً طويلاً من أجل أشياء لا قيمة لها. لكن سيهون الأمر حين نعد البداية في أي أمر مثل تسخين (السيارة) ثم يتعاظم الانطلاق شيئاً فشيئاً.

البدايات التربوية الجيدة تبدأ دائماً في المنزل، والآباء هم المربون الطبيعيون، ولذا كان اهتمامهم بالعلم عاملاً حاسماً في تطور الموقف النفسي لأطفالهم تجاه قضية التعليم، وتكوين عادة القراءة لديهم، فهم قادرون ـ إن أرادوا ـ على تكوين حسّ

الملاحظة والإصغاء والانتباه وتنمية الملكات، كوصف المشاهد، وعقد المقارنات، وتمييز المفارقات؛ وكذلك غرس روح النظام والترتيب والجدولة في حياة أبنائهم اليومية.

إن سرد حكاية أو قراءة قصة مما يتمتع به الطفل، مما ينمي خياله المبدع، ويعطيه درساً في اللغة والتواصل والقيم أيضاً. وسيكون لشراء سلاسل من الكتب المصورة للطفل أهمية كبرى في كل ما ذكرناه، كما أن وجود مكتبة جيدة في المنزل سيساعد مساعدة كبيرة في توجيه الطفل نحو القراءة.

وتأتي بعد ذلك وظيفة المؤسسات التعليمية في رعاية ما بدأه الأهل في البيت، وتنميته، ولن تستطيع مدارسنا وجامعاتنا فعل شيء ذي قيمة إلا إذا كفَّت عن تلقين المعلومات، وصارت إلى تكليف الطالب بالرجوع إلى المراجع والموسوعات وتلخيص بعض الكتب، وتقديم عروض عنها، وتقديم الحوارات والمناقشات حول الكتب الجديدة...

إن عادة القراءة لن تتكون لدى الإنسان إلا عندما يشعر بشيء من المتعة واللذة عندما يقرأ، وهذا لن يكون إلا حين تكون القراءة عبارة عن نوع من الاكتشاف، ونوع من تنمية العقل، وتوسيع قاعدة الفهم، وكل ذلك مرهون بامتلاك طريقة

جديدة للتعامل مع المواد العلمية المقررة على الطلاب .

إن قابليتنا للتعلم، تتحول بفضل ممارسة القراءة إلى براعة، كما أنه يمكن للتكرار والتمرين أن يجعلا من حب المعرفة طبيعة ثانية لنا .

٣ ـ توفير الكتاب :

لأن القراءة لا تتمتع بأي أهمية لدى السواد الأعظم من أبناء الأمة ، فإننا نسمع شكوى مستمرة من غلاء الكتب ، وعدم توفر المال المطلوب لشرائها . ولا نشك أن هناك قسماً محدوداً من الناس لا يجد أي سبيل لاقتناء الكتاب ، بسبب بطالته عن العمل ، أو بسبب كبر حجم أسرته . . . لكن عند التمحيص في حياة معظم الناس سنجد أن سوء تنظيم عملية الإنفاق لديهم ، هو المسؤول الأول عن شعورهم بالعجز عن توفير ثمن الكتب وغيرها . ووقفة متأنية للنظر فيما يهدر من مال شهرياً على بعض الكماليات، وبعض الأشياء المقصود من استهلاكها الظهور والتسلق الاجتماعي ؛ ستجعلنا نوقن أن السبب الجوهري للعزوف عن القراءة لدى كثير من الناس ليس شح المال ، وإنما انعدام أية رغبة لديهم في مصاحبة الكتاب . ومع هذا فإن قضية

كبرى كقضية القراءة، يحتاج تعميمها إلى عدد من (الحلول المركبة) وليس إلى حل واحد، ومن تلك الحلول:

ـ إيجاد تنظيمات تلزم الهيئات والجهات المختلفة بإيجاد مكتبات مناسبة لتثقيف منسوبيها، مثل النوادي والنقابات والغرف التجارية، ومجالس الأحياء والبلديات، والشركات والمصانع والمطارات... ولا بد من تعميم المكتبات في (المساجد) وتطويرها بما يلبي الحاجات المعرفية الجديدة.

ـ إن من المهم أن يكون هناك رابطة لأصدقاء الكتاب، يكون همها العمل على توفير الكتاب، وتسهيل وصول أكبر عدد من الناس إليه، من خلال إقامة المعارض، وتنشيط سوق (الكتاب المستعمل) والعمل على إصدار (طبعات شعبية) رخيصة التكلفة لأمهات الكتب والمراجع، وتأسيس صندوق لدعم بعض الكتب القيِّمة حتى يمكن توفيرها بأسعار رخيصة للناس، إلى جانب نشر فكرة تأجير الكتاب بأسعار رمزية، وحث الأثرياء على تخصيص مبان ملحقة ببيوتهم، يجد فيها شداة المعرفة الكتابَ والجوَّ الذي يساعدهم على المطالعة.

ـ إيجاد نظام وطني لإعارة الكتاب وتبادله بين الهيئات والمؤسسات العلمية؛ حيث يمكن من خلال نظام فعال تحقيق

استفادة قصوى من الكتب الموجودة، والتقليل من الحاجة إلى إنشاء أعداد كبيرة من المكتبات ـ على غرار ما هو معمول به في عدد من الدول المتقدمة ـ ولا بد من أجل ذلك من تعزيز أداء الخدمات البريدية.

ـ قيام الجامعات والهيئات العلمية المختلفة بتبسيط العلوم عن طريق إصدار عدد من سلاسل (كتب الجيب) في التخصصات المختلفة، على نحو لا يستهدف الربح، وإنما إشاعة المعرفة، ومساعدة الناس على التثقف والاطلاع.

ـ إن تخصيص ٢٪ من مصروف أية أسرة، كافٍ لتأمين عدد من الكتب متوسطة الحجم شهرياً، وتأسيس مكتبة قيمة في المنزل على المدى البعيد.

ولا بد من القول أخيراً: إن كل ما ذكرناه، سيظل في حيز الأمنيات ما لم نعرف ما يتمتع به الكتاب من أهمية ومحورية في تغيير أحوالنا والارتقاء بأوضاعنا.

٤ ـ توفير الوقت للقراءة:

إن أكثر من ٨٠٪ ممن لا يقرؤون كتاباً في الشهر، يعتذرون بأنه ليس لديهم وقت للقراءة، فمدة عملهم اليومي

طويلة، وعملهم شاق يحتاج إلى راحة مديدة بعده، ثم إن الوقت القصير الذي يتبقى لدى الواحد منهم، ينفقه في تدريس أولاده. . . أعذار كثيرة يبديها كثير من الناس، مع أن في صدورهم شيئاً آخر يتلجلج، لا يملكون فكاكاً منه: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

إن الإحساس بالزمان منتَج حضاري، ومن العسير على من لا يعيش عصره، ولا يشعر بإيقاعه أن يفهم بدقة ما يقال اليوم عن أهمية الوقت، وأهمية تنظيمه واستثماره والمحافظة عليه، وهذه ضريبة أخرى من ضرائب التخلف الكثيرة.

إن الوقت هو المادة التي صُنعت منها الحياة، وسيكون لكل الذين يبذِّرون في إنفاقه أن يوجدوا الكثير الكثير من البراهين على حسن تعاملهم معه، مع أن الموضوعيين من بني البشر يعرفون أن استغلال الوقت على نحو كامل مستحيل؛ ولذا فإنهم يتهمون أنفسهم دائماً بالتقصير. لو أن واحداً منا وضع سجلاً كاملاً، يوضح فيه كيفية قضائه لأوقاته خلال أسبوع ـ لوجد أن نحواً من ٢٠٪ على الأقل من نشاطاته لا يخدم أي هدف، ولا يعود عليه بأي نفع، وليس له أي معنى! ولو أننا دقّقنا النظر في (المكالمات الهاتفية) التي نجريها كل يوم لاكتشفنا

أن كثيراً منها لا حاجة إليه، ولوجدنا أن كثيراً مما يقال فيها، يمكن الاستغناء عنه. وإني واثق أن تنظيم هذا الجانب وحده من حياتنا، كفيل بأن يوفر لنا يومياً نصف ساعة ـ على الأقل ـ يمكن أن نستفيد منها في قراءة مادة معرفية، ننمي بها ثقافتنا.

إن المشكلة الأساسية بالنسبة إلى الذين لا يقرؤون، ربما كانت أنهم لا يملكون أية أهداف، أو أية أولويات، يضغطون بها على حاضرهم، ويوجهون من خلالها جهودهم.

سيكون مفيداً ونحن نبحث عن وقت للقراءة أن نكتشف (الساعة الذهبية) في يومنا، حيث يكون الواحد منا في قمة نشاطه؛ كي نستفيد منها في التفكير الإبداعي، أو قراءة المواد الصعبة أو التخطيط لأعمالنا. بعض الناس يخصص في يومه ساعة، يسميها (الساعة الهادئة) فهو لا يستقبل فيها زائراً، ولا يرد فيها على هاتف، ولا يكلم فيها أحداً من أهل بيته. وقد كان أحد المثقفين ينعزل ساعة في يومه، ويقول لخادمه: مهما حدث فلا تخبرني إلا إذا احترق المبنى الذي نحن فيه!

لو أن الواحد منا سأل نفسه: ما هو العمل الذي يمكن أن أقوم به الآن، ثم لا أقوم به؟ ولو سأل نفسه: هل العمل الذي أقوم به الآن له أهمية أو أولوية على غيره؟ لوجد كل واحد منا

الوقت الكافي للقيام بالعديد من الأعمال النافعة، ولاختفى الكثير من الفوضى والكسل اللذين يغلفان حياة المسلمين اليوم!.

إن تغيير السلوك في التعامل مع الوقت، يحتاج إلى وقت، وعلينا أن نثابر ولا نيأس.

٥ ـ تهيئة جو القراءة:

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين إمكانية الفهم والاستيعاب وبين الأجواء والأوضاع التي تجري فيها عملية القراءة؛ فالوضعية غير المريحة للقارئ والمكان غير المناسب للقراءة، يقللان من إمكانية استمرار القراءة، كما يجعلان الفائدة منها محدودة، وهناك شروط عديدة ينبغي توفيرها من أجل تهيئة الجو المناسب للقراءة، منها:

أ ـ يجب أن يكون مكان الدراسة منظماً وجميلاً، يبعث على الارتياح والانشراح، وهذا يكون ميسوراً حين يكون هناك حجرة خاصة بالدراسة أو جزء من حجرة. إن المكان المليء بالأشياء المبعثرة، أو التي لا حاجة إليها؛ يبعث على الكآبة، ويولِّد الرغبة في مغادرته.

وحين تنتهي فترة الدراسة، فإن مما يبعث على العودة إليها كون المكان مهيئاً لها. بعض الناس يترك مكتبه الذي يدرس عليه في غاية الفوضى، فيجد نوعاً من الصد عن العودة إليه؛ ولذا فإن من الملائم أن يستغرق القارئ الدقائق الأخيرة من فترة الدراسة في ترتيب المكان والاستعداد للجلسة التالية.

ب ـ ينبغي أن تكون حجرة الدراسة صحية حسنة التهوية، جيدة الإضاءة، وينبغي أن تكون درجة الحرارة فيها بين ١٥ و٢١ْم حتى يحتفظ القارئ بنشاطه، ويستطيع الاستمرار مدة طويلة.

جـ ـ بعض الناس لا يهتم بهدوء المكان وانعزاله عن الناس، مما يفقدهم صفاء الذهن والقدرة على التركيز. ولذا فإن مكان الدراسة ينبغي أن يكون بعيداً عن الضوضاء داخل المنزل وخارجه، وإلا امتزجت الدراسة بالتسلية، والعمل بالفراغ.

د ـ ينبغي أن يكون الكرسي مريحاً، وأن يكون مناسباً لمكتب الدراسة، كما ينبغي أن يضع مريد القراءة على مكتبه الأدوات والمعاجم والمراجع التي يحتاج إليها أثناء القراءة،

حتى لا يضيع الوقت بالقيام والقعود، وحتى لا يعطي لنفسه المسوِّغ للانقطاع عن القراءة.

هـ - إن العبرة ليست بكثرة الجلوس في حجرة الدراسة، ولا بكثرة الكتب التي تُقرأ، وإنما بالإنتاجية والثمرة التي نقطفها، وهذا يوجب علينا أن نحرص على الاحتفاظ بدرجة من الحيوية والارتياح أثناء القراءة، وهذا لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال جعل أوقات للاستراحة، والانشغال بشيء غير التفكير والتعامل مع المعلومات. إن كتيبة مشاة قد تستطيع أن تمشي يوماً كاملاً إذا استراحت عقب كل ساعة مشي عشرَ دقائق.

إن القراءة المثمرة تستحق منا التخطيط والتفكير والمثابرة والعناء، لأنها من أهم العوامل التي تعيد صياغة وجودنا من جديد!.

* * *

لماذا نقرأ

الإنسان متسائل بالفطرة، توّاق إلى اكتشاف المجهو
بالطبيعة؛ وحين يرتقي في معارج الحضارة، يتحول لديه كث
من المعارف العلمية من معطيات ممتعة ومرفهة إلى ضرورا
حياتية، حيث يتوقف عليها نموه الروحي والعقلي والمهاري.

والحضارة ليست في جوهرها الوصول إلى معلوما
جديدة، وإنما توظيف المعارف المتاحة في تحسين نوعية حي
الناس، والارتقاء بجوانبها المختلفة، من هنا فإن أهداف النا
من وراء (القراءة) عديدة، تتنوع بحسب وضعية القارئ
وما يؤمله من وراء مطالعة كتابٍ ما.

الظروف الحياتية التي يمر بها كل واحد منا، تجع
الأهداف الباعثة على القراءة تتفاوت تفاوتاً بعيداً؛ فقد تكو
القراءة من أجل توسيع قاعدة الفهم، وقد تكون من أج
الحصول على معلومات حول موضوع ما، وقد تكون من أج

التسلية أو رفع الحرج، أو الرضوخ لعادة معينة، أو ملء الفراغ، وقد تكون من أجل متعة روحية أو عقلية، أو تلبية لمتطلبات تطور مهني للمرء، أو استجابة للشعور بالواجب، أو لإظهار حب المعرفة والتشبه بأهلها. . .

وكثير من الناس لا يعرف لماذا يقرأ، ولا يبالي بمساءلة نفسه عن الهدف التفصيلي الذي يقرأ لأجله، مع أن تحديد ذلك بدقة مهم جداً لتحديد ما يلائم الهدف من أنواع الكتب وأنواع القراءة ومستوياتها. ويمكن أن نقول: إن الأهداف العامة لقراءة معظم الناس ثلاثة، هي:

١ ـ القراءة من أجل التسلية، وتزجية الوقت وملء الفراغ.
وهذه القراءة الأكثر شيوعاً بين الناس. وتثبت بعض الإحصاءات أن نحواً من ٧٠٪ من القراء يتجهون إلى القراءة من أجل التسلية؛ فهناك أعداد هائلة من الناس تتجه إلى قراءة القصص والروايات والمسرحيات والجرائد والمجلات (الخفيفة)، والسبب في هذه الوضعية أن القراءة من أجل التسلية، لا تحتاج إلى أية مهارة، ولا تكلف جهداً يذكر؛ إذ بإمكان القارئ أن يلقي بالكتاب متى ما شاء، وأن يقنع منه بأية فائدة يمكن أن يحصل عليها، حتى إن أكثر الكتب صعوبة يمكن أن يتم الاطلاع عليه من أجل التسلية.

أضف إلى هذا أن السواد الأعظم من الناس لا يملك أية أهداف أو محاور معينة، تلزمه بمطالعة نوع معين من الكتب، أو تلزمه بوضع برنامج قرائي محدد، وهذا يدفعه دفعاً إلى قراءة أي شيء يقع تحت يده، وسيقرؤه باهتمام من درجة اهتمامه باختياره!.

ومع هذا فإن القراءة من أجل التسلية، لا تخلو من فائدة، فالقارئ قد يتخلص بها من الفراغ الذي يؤدي إلى الشعور بالتفاهة، وقد يشغل بها عن ملء فراغه بأشياء ضارة، وهي بالإضافة إلى هذا قد تكون علاجاً لبعض الأمراض العصبية، فالخرف الذي يصيب كبار السن، يعالج اليوم بالقراءة إلى جانب علاجات أخرى، كما أن في القراءة علاجاً جيداً لمرض التمركز الشديد حول الذات، الذي يعاني منه بعض الناس. وهكذا فصحبة الكتاب خير على كل حال.

٢ ـ القراءة من أجل الاطلاع على معلومات، أسلوب يمارسه كثير من الناس أيضاً، والجهد الذي يتطلبه هذا النوع من القراءة محدود أيضاً؛ إذ من السهل على من يعرف شيئاً من أحكام الصلاة أن يضيف معلومة إلى معلوماته حول خلاف فقهي، في كون أحد أفعالها سنة أو واجباً. كما أن من السهل

على من يعرف جغرافية بلد من البلدان أن يضيف إلى معلوماته شيئاً عن أزمته المائية، أو عن تطور عدد سكانه. . .

إن القراءة من أجل الحصول على معلومات شائعة جداً؛ لأن في عالمنا الإسلامي (حمّى) تجتاح كثيراً من الناس، هي حمّى البحث عن الأسهل، والوصول إليه بأسرع وقت ممكن!

والدليل على شيوع هذا النوع من القراءة: الشكوى المستمرة من قِبل كثير من الناس من صعوبة بعض الكتب، واستغلاقها على أفهامهم، فهم لا يريدون أن يشاركوا المؤلف في عناء التجربة. ودليل آخر على ذلك، هو أننا نشعر أن لدى الناس معلومات كثيرة حول قضايا وأحداث وأشياء كثيرة، لكن الملاحظ أيضاً أن فهم كثير منهم لا يتحسن، كما أن قدرتهم على المحاكمة العقلية ما زالت ضعيفة، وقدرتهم على غربلة المعلومات ودمجها في أطر ومحاور أكثر شمولية أشدّ ضعفاً. وليس من الغريب أن نصف شخصاً ما بأنه كثير القراءة، ثم نجد أن (مركَّبه العقلي) لم يطرأ عليه أي تغير خلال عشرين سنة من القراءة والاطلاع!.

٣ ـ القراءة من أجل توسيع قاعدة الفهم، وهي أشق أنواع القراءة وأكثرها فائدة. والذين يقرؤون من أجل هذا الغرض قلة

قليلة من الناس، وذلك لأن أكثر الناس يعتقدون أن ما يملكون من مبادئ وقدرات ذهنية وإدراكية كاف وجيد، فالناس لا يقبلون في العادة أي اتهام لهم بأن أذهانهم تعاني نوعاً من النقص؛ كما أن القراءة من أجل تحسين نوعية الفهم شاقة جداً منذ بدايتها؛ فالكتاب الذي يرقى بفهم قارئه ليس ذلك الكتاب المفهوم لديه، أو ذلك الذي يعرض معلومات وأفكاراً معروفة، وإنما ذلك الكتاب الذي يشعر قارئه أنه أعلى من مستواه، وأن فهمه يحتاج إلى نوع من العناء والجدية والتركيز. وحين ينجح القارئ في فهمه، فإنه يكون قد ارتفع إلى مستواه، وبذلك يكون قد تحسَّن تفكيره.

وقد يحدث أن يكون الكتاب مبتوت الصلة بثقافة القارئ، أو يحتوي على مصطلحات أو أفكار غريبة أو معقدة؛ مما يجعل القارئ يشعر بالخذلان والانكسار؛ وهذا يعني أن القارئ قد لا يكون من الشريحة التي يستهدفها الكاتب. ولذا فإن الكتاب الذي يحسّن الفهم، هو كتاب يتحدى ولا يعجز؛ فهو أعلى من مستوى القارئ لكن يمكن أن يرقى إليه إلى حد مقبول.

إن القراءة من أجل الفهم، هي تلك القراءة التي تستهدف

امتلاك منهج قويم في التعامل مع المعرفة، وتكسبنا عادات فكرية جديدة، وتلك التي تزيد في مرونتنا الذهنية، كما تنمي الخيال لدينا، وتجعلنا نرسم صوراً للأحداث والأشياء، هي أقرب إلى التكامل، على الرغم من وجود نقص في المعلومات والمعطيات المتاحة. . . إن مكاسبنا من وراء كتب تعطي معلومات كمكاسب شخص امتلك قطعة ذهبية، أما مكاسبنا من وراء كتب تحسّن الوضع الفكري لدينا، فهي مثل مكاسب من أُعطي مفتاح منجم من الذهب! .

إن هذا النوع من القراءة هو الذي يجعل معلوماتنا، تزهر وتثمر، وسنعنى بشرحه عناية فائقة بحول الله وطَوْله.

ولا بد من القول: إن الخط الذي يفصل بين الكتاب الذي يعطي معلومات، وبين الكتاب الذي يوسع قاعدة الفهم، خط غامض في أكثر الأحيان، فما من كتاب مخصَّص لإعطاء معلومات إلا يمكن أن يحسّن نوعية الفهم إذا تم تقديمه بطريقة سرد جديدة، كأن يحتوي إلى جانب المعلومات البحتة على استدلالات أو استنتاجات أو مقارنات أو تعليلات معينة.

* * *

أنواع القراءة

أولاً ـ القراءة الاكتشافية

لا بد للمرء من أن يغتبط لكثرة ما يرى من الكتب الجديدة في المكتبات هذه الأيام، لكن هذا لا يدعو أبداً إلى أن نندفع إلى الشراء دون تأمل في مدى مناسبة ما نشتريه لنا.

في تاريخنا كتب كثيرة سطَّرها أصحابها، ولم تلق القبول من الناس، ولم تُقرأ في زمانها على نطاق واسع، ويعاد الآن نشرها لأغراض مختلفة.

وهناك كتب يؤلفها أصحابها اليوم لأغراض تجارية بحتة، ويضعون عليها العناوين المغرية، والتي لا تمثل حقيقة ما في الكتاب.

أضف إلى هذا أن الكتّاب الجيدين يستهدفون ـ في العادة ـ شريحة معينة من الناس، يرغبون في إيصال مضامين

كتبهم إليها، ولذا فإن الكتاب في حد ذاته، قد يكون جيداً، لكنك لست من الشريحة الموجَّه إليها، مما يجعل قراءته عقيمة أو مُغضبة. إن الكتاب مثل (القميص) كثيراً ما تكون جودته من مناسبته للابسه، وليست من جودة قماشه أو لونه. ومرة أخرى فقد يكون الكتاب ملائماً لك، لكن مادته التي يشرحها لا تدخل ضمن أولوياتك القرائية... وهكذا، فهناك أسباب كثيرة، تدعونا إلى عدم الاستعجال في شراء أي كتاب، مهما كان موضوعه أو ثمنه، وأياً كان كاتبه - ما لم نلقِ عليه نظرة تصفحية، لنكتشف مدى حاجتنا إليه، والطريقة التي علينا أن نتبعها في قراءته.

نستطيع خلال نصف ساعة أن نصل إلى حكم جيد على الكتاب إذا قمنا بالتالي:

١ - قراءة مقدمة الكتاب - إن كان له مقدمة - حيث يكشف كثير من الكتّاب في مقدمات كتبهم عن دوافع التأليف وأهدافه، كما يكشف بعضهم عن الفئة التي يخدمها الكتاب، وعما إذا كان الكتاب يهدف إلى شرح قضية معينة، أو كان قد صمم للرد على كاتب آخر، أو للمساهمة في معالجة قضية مطروحة على الساحة الثقافية...

٢ ـ قراءة فهرس الموضوعات من أجل الاطلاع على موضوعات الكتاب، والأهم من ذلك اكتشاف المنظور المنطقي للكتاب. إن كثيراً من القراء، يكتفي بقراءة كتابه المفضَّل دون أن ينظر في فهرس المحتويات، فيفوته تصور المخطط الكلي للكتاب، والذي يعبر عن تماسكه ووحدته الموضوعية. بعض الكتّاب يصمم جدولاً تحليلياً لمحتويات الكتاب، فيخدم القارئ بذلك، حيث يوسِّع رؤيته لمضامين الكتاب، ويسهِّل عليه الإلمام ببعض تفاصيله.

٣ ـ الاطلاع على فهرس المصادر والمراجع التي اعتمد عليها المؤلف في بناء كتابه، حيث إنها تشكِّل المورد الأساس لمعلوماته وصياغاته، كما أنها تدل على طبيعة معالجته للمادة التي في كتابه، وسوف يكتشف القارئ من خلالها الكثير من الخلفية الفكرية والثقافية التي تشكل ميول المؤلف المعرفية.

٤ ـ بعض المؤلفين، يضع ملخصاً مكثفاً في آخر كل فصل لما أورده فيه، وسيكون من المفيد قراءة بعض الملخصات لتحسس جوهر المادة المعروضة، كما أن إلقاء نظرة سريعة على

عناوين فصول الكتاب، ستكون أيضاً نافعة.

٥ ـ قراءة بعض صفحات أو فقرات من الكتاب لمعرفة مستوى المعالجة في الكتاب، وهذا مهم جداً؛ حيث إن القراءة المنتظمة ـ لا سيما إذا كانت في حقل واحد ـ تملِّك القارئ (ذائقة معرفية) تمكنه من معرفة مستوى الكتاب، ومدى ما يمكن أن يكون فيه من معلومات وأفكار، هو بحاجة إليها.

حين يقوم القارئ الممارس بما ذكرناه، فإنه يكون ـ في الغالب ـ قد انتهى إلى تقرير مقدار فائدة الكتاب له وحاجته إليه، كما يكون قد أدرك ما يحتاجه عند قراءة ذلك الكتاب من مراجع أو شروح، تساعده على فهمه.

إن إهمال القراءة الاستكشافية أو التصفحية، قد أدى بأعداد لا تحصى من البشر إلى أن يشتروا كتباً، لا تستحق القراءة، لأنها لا تساوي ثمن المداد الذي كتبت به، أو أن يشتروا كتباً لا يستطيعون الاستفادة منها، أو لا تهمهم!.

* * *

ثانياً ـ القراءة السريعة :

إن المعرفة تتضاعف كل خمس عشرة سنة ـ على أبعد تقدير ـ وهذا يعني أن الكتب المنشورة تتحدى القرّاء، وتتطلب منهم المزيد من الاستعداد، والمزيد من الوقت من أجل الاستفادة منها. لو قدر للمرء أن يقرأ في حياته ستين سنة، وقرأ في كل أسبوع كتاباً، فإنه يكون قد قرأ نحواً من ثلاثة آلاف كتاب، وهو رقم متواضع جداً بالنسبة إلى ما هو منشور[1].

بعد تصفح الكتاب واكتشاف مستواه، يقرر القارئ أي نوع من القراءة يستحق، فهناك كتب تقرأ قراءة سريعة لالتقاط النافع منها[2]، وهناك كتب يجب أن تقرأ بدقة متناهية، وتحرث

---

(١) تقوم السوق الأوروبية المشتركة بمشروع عملاق لربط كثير من مكتبات أوروبا بشبكة معلومات هائلة، وسيتم إنزال نحو مليارين ومئة مليون كتاب على تلك الشبكة!.

(٢) كان كبار علمائنا يدرك هذه الوضعية على نحو ممتاز، ولذلك كانت لهم جدية نادرة في المثابرة على قراءة الكتب الصعبة، كما أنه كانت لهم قراءاتهم السريعة. ويذكرون في هذا السياق أن ابن حجر العسقلاني قرأ صحيح مسلم في خمسة مجالس، في نحو يومين وشطر يوم، وقرأ النسائيَّ الكبير في عشرة مجالس، مدة كل مجلس=

حرثاً، كما يفعل (الفلاح) في أرض خصبة يبتغي منها الكثير الكثير.

وتقوم فكرة القراءة السريعة على ما هو معلوم من أن النظر يقفز من مساحة إلى أخرى، وعندما يستقر على مساحة معينة، فإنه يلتقط عدداً من الرموز والإشارات، ثم يقفز ليستقر ثانية وهكذا، فانتقال البصر قفز، والتركيز يعني التقاط وحدات دلالية ذات مغزى. ويقرر علماء وظائف الأعضاء أن البصر يستقر مدة ثانية واحدة مهما كانت القراءة سريعة أو بطيئة. والفرق بين القراءتين، هو أن صاحب القراءة السريعة يلتقط في هذه الثانية عدداً أكبر من الوحدات الدلالية؛ فعلى حين لا يلتقط القارئ العادي البطيء أكثر من عشر وحدات أو مقاطع صوتية، فإن القارئ السريع يلتقط حتى عشر كلمات دلالية!.

مشكلة القارئ غير المتمرس، هي (النكوص) إلى سطور

= منها نحو أربع ساعات، وقرأ في مدة إقامته بدمشق، وكانت شهرين وثلث شهر تقريباً قريباً من مئة مجلد. وقرأ الخطيب البغدادي على كريمة (إحدى راويات الحديث) صحيحَ البخاري في خمسة أيام. ويقول ابن الجوزي عن نفسه: إنه لو قلت: إنني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعدُ ما زلت في طلب العلم!.

سابقة، كلما انتقل من مساحة إلى أخرى مستعيداً قراءة ما فات، حتى يستطيع متابعة المعنى فيما يليه، كما أن انتقال نظره يكون متقطعاً وغير منتظم؛ على حين أن انتقال نظر القارئ السريع يكون مستمراً ومنتظماً.

وقد عرفت بعض الدول المتقدمة قيمة السرعة في القراءة، فأقامت الدورات للقراءة السريعة منذ أكثر من نصف قرن، وتلك الدورات تهدف دائماً إلى تدريب القارئ على أن يلتقط أكبر عدد ممكن من الكلمات أثناء الثانية التي تقف فيها العين. وتستخدم في تلك الدورات أدوات عديدة لتعليم القارئ ذلك، ولعل أبسطها هو أن يضم القارئ إبهامه مع أصبعه، ثم يحرك هذا المؤشر تحت السطر بسرعة أكثر قليلاً من حركة عينيه بشكل مريح. وحين يجبر نفسه على متابعة القراءة مع حركة يده، فسوف يجد أنه صار في وقت قصير قادراً على قراءة الكلمات وفق حركة يده تحت السطر. وكلما تابع في التمرن، وزادت سرعة حركة يده فإنه سيجد أن سرعة قراءته قد زادت، وقد تبلغ تلك الزيادة ضعفين أو ثلاثة أضعاف.

من أجل معالجة ارتداد بصر القارئ إلى الجمل السابقة،

يقترح بعضهم أن يأخذ القارئ بطاقة مسطَّرة، ويحدد عليها مستطيلاً بطول: ٤سم وعرض ٧مم ثم يقطعه على النحو التالي:

ويحدد حدود القطعة المقتطعة بالقلم العريض حتى تتضح معالمها، ثم يضع البطاقة على النص ليقرأ ما يظهر داخلها من كلمات السطر، ثم يزيحها حال انتهائه من القراءة، ويستمر على هذا المنوال حتى ينتهي النص. بهذه الطريقة يكون قد أخفى الجمل التي قرأها بالبطاقة حال انتهائه من قراءتها، ولا يجد الفرصة للعودة إليها ثانية.

مشكلة الفهم:

هناك من يقول: إن بطء القارئ في نقل عينيه من كلمة إلى أخرى، وقلة ما يلتقطه في الوقفة الواحدة، ونكوصه إلى كلمات قرأها سابقاً... ما هو إلا انعكاس لعجز العقل عن استيعاب معاني الصور التي نقلتها إليه العين، وارتباكه في تفسيرها وتحليلها؛ فسرعة القارئ منوطة ـ إلى حد بعيد ـ بسهولة المادة التي يقرؤها، وبعد الكاتب عن الإغراب والالتواء في أسلوبه.

لا بد لهذا القول أن يكون صحيحاً؛ إذ لا يمكن لأحد أن
يدعي أن بإمكانه أن يقرأ كتاباً في الفلسفة أو النقد الأدبي أ
المنطق بالسرعة التي يقرأ بها قصة أو كتاباً في التاريخ، أو خبر
في جريدة. إن القراءة بسرعة كبيرة هي إنجاز مشكوك فيه. إنه
ذات قيمة إذا كان ما نقرؤه لا يستحق القراءة!

ومع هذا فإن فكرة التدرب على القراءة السريعة، والحث
على تعلمها، تقوم على افتراض يقول: إن معظم الأفراد يجب
أن تكون لديهم قابلية لأن يقرؤوا بأسرع مما هم عليه، وأن
بإمكان السواد الأعظم من الناس أن يضاعف سرعة قراءته ضعف
أو ضعفين؛ وحين يضع إبهامه معقودة مع السبابة تحت السطر
الذي يقرؤه فإنه في هذه الحالة لا يساعد نفسه على سرعة القراءة
فحسب، وإنما يحسِّن تركيزه أيضاً على ما يقرأ؛ فتتبع حركة
اليد يحول ـ غالباً ـ دون النوم والشرود والاستغراق في أحلام
اليقظة؛ مما يعني زيادة فاعلية القراءة، وهي تجعل الفهم في
كثير من الأحيان أفضل وأعمق.

وعلى كل حال فإن القارئ الذي يقرأ مادة سبق له الاطلاع

عليها في كتب أخرى، يستطيع أن يقرأ تلك المادة بسرعة أعلى بكثير من قارئ لم يخبرها قبل ذلك؛ مما يعني أن استمرار القراءة في محور من محاور المعرفة، سيكون مساعداً أساسياً على قراءة أسرع وإنجاز أعظم.

مما يتصل بسرعة القراءة مسألة القراءة الجهرية والقراءة الصامتة، وفي هذه المسألة يمكن أن نقول: إن القارئ المبتدئ والطفل الصغير ينبغي أن يقرأ في البداية بصوت مرتفع؛ لأن ذلك مما يعين على تقسيم الكلام حسب معناه في أدائنا الصوتي، وفي هذا تعود على لمح المعنى بدقة وسرعة. فإذا ما حدث نوع من التعود على هذا النوع من القراءة بقدر كاف، يُنصح القارئ بالتعود على القراءة المهموسة، ثم القراءة الصامتة؛ لأنها تتيح له سرعة أكبر، حيث إن عين القارئ قراءة جهرية تسبق صوته بما يتراوح بين أربع كلمات وست كلمات. والسرعة تقتضي توجيه الحواس كافة وحصرها لتصبح العلاقة ثنائية بين العين والمخ، أو بين البصر والعقل؛ وذلك لأن القراءة عمل عقلي، يبدأ بالنظر.

* * *

ثالثاً ـ القراءة الانتقائية:

حين يتجه المرء إلى التعمق في موضوع بعينه، فإنه يكو
بحاجة إلى تتبع العديد من المراجع والكتب المتنوعة للعثو
على مادة متجانسة، تساعده على تكوين صورة جيدة عر
الموضوع الذي يهتم به.

الكتب التي يمكن أن يعود إليها أي باحث نوعا
رئيسان:

النوع الأول: كتب تنتمي إلى الحقل المعرفي الذي ينتمي
إليه الموضوع الذي يريد الباحث خدمته والتعمق فيه، مثل
كتاب في الاقتصاد لموضوع اقتصادي، وكتاب في اللغـ
لموضوع لغوي... ويشكل هذا النوع من المراجع المصد
الأساسي للباحث؛ فعن طريقه يمكن تكوين رؤية جيدة للبني
الأساسية للموضوع، وللدراسات التي قام بها المختصو
حوله؛ مما يبلور للكاتب ـ خاصة ـ خلفية جيدة عما تم إنجاز

في موضوعه، وعن المساحة المتبقية أمامه لإضافة شيء مافيه. ومع التسليم بالأهمية القصوى لهذا النوع من المراجع، إلا أن الاقتصار عليه يجعل معرفة القارئ بموضوعه شبه معزولة عما يمثل امتدادات لذلك الموضوع في فروع المعرفة الأخرى. ومعظم القراء يؤثر الاعتماد على هذا النوع من المراجع لسهولة التعرف عليه وحصره والاستفادة منه.

وأظن أن الاعتماد المبالغ فيه على هذا النوع من المراجع، نابع من اعتقاد قديم، يرى أن (ذاتية) الأشياء مستقلة ومكونة من عناصر داخلية؛ على حين أن التجربة الإنسانية تثبت أن لعلاقات الشيء بغيره من التأثير فيه، ومن التحديد لماهيته القدح المعلى والقسط الأوفى!.

النوع الثاني: كتب لا تنتمي إلى الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه الموضوع الذي نود سبر أغواره، وذلك كأن نعود إلى كتاب في (الفقه) من أجل العثور على فكرة اجتماعية أو تربوية... حين نفعل ذلك نكون كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش، وبسبب هذه الصعوبة يُعرض أكثر الناس عن هذا

النوع من المطالعة توفيراً للجهد والوقت، وعزوفاً عن فائدة لا تبدو مغرية. إلا أن مما ينبغي التنبه إليه أن فائدة هذا النوع من المطالعة أشبه بالفوائد التي نحصل عليها من وراء رحلة مثيرة خارج حدود الوطن. . . إننا لا نعرف ما الذي سنعود به، لكن كثيراً ما يكون رائعاً وعظيماً!.

إن وجود فكرة تربوية في كتاب تاريخي، يعني نوعاً من الامتداد التربوي في العمق التاريخي، أو يعني نوعاً من التأطير التاريخي لمغزى تربوي، وهذا يعطينا دائماً لوناً من ألوان توحيد المعرفة، وإعادة الربط بين فروعها وأجزائها، وهذا ضروري جداً للفهم الشامل، وتوسيع الأفق، بل والمعالجة الحكيمة أيضاً للموضوع الذي نقرأ من أجل إثراء خبرتنا فيه.

إن هذا النوع من معاناة الاطلاع والبحث عن الأفكار والمعلومات المتناثرة في غير مظانها، يحتاج إلى نوع من القراءة السريعة جداً، أو نوع من الرفرفة فوق النصوص، من أجل الاطلاع على أكبر عدد ممكن من الصفحات في وقت قصير؛ إنه نوع من المسح السريع لمساحات واسعة جداً. ولا بد أن يسبق

ذلك تحديد دقيق لبغية القارئ وحاجته من وراء هذا النوع من القراءة، وإلا فقد يُشغل باستخراج الكثير من المعلومات والفوائد المتناثرة، والتي لا يدري فيما بعد في أي سياق معرفي يستخدمها، ولا في أية منظومة معرفية يسلكها؟ .

إذا كان الكتاب مستعاراً، فإنه ليس أمام القارئ سوى استخراج المعلومات التي يعثر عليها، وتسجيلها على بعض البطاقات. أما إذا كان الكتاب ملكاً للقارئ فإن بإمكانه أن يفعل ما تقدم، أو أن يضع بعض الإشارات حول المقاطع أو الفقرات التي يمكن أن يعود إليها فيما بعد. وهو مخير أيضاً بين أن ينقل تلك الفقرات نقلاً حرفياً، وبين أن يلخصها، ويستخرج منها ما يخدم الموضوع الذي يقرأ من أجله. وسيكون من المفيد أن يتصفح في دقائقَ الكتابَ الذي يريد قراءته، حتى يكوِّن انطباعاً عن السرعة المطلوبة لقراءته.

* * *

رابعاً ـ القراءة التحليلية:

إن القراءة التحليلية هي أفضل أسلوب يمكن للمرء أن يتبعه في استكناه مضمون كتابٍ ما في وقت غير محدد. فهي لا تعني الاطلاع والاستفادة فحسب، بقدر ما تعني نوعاً من الارتقاء بالقارئ إلى أفق الكاتب الذي يقرأ له، ومحاولة النفاذ إلى معرفة شيء من مصادره وخلفيته الثقافية، بل وحواره ونقده والوقوف على جوانب القصور في الكتاب...

عندما سيقرأ كثير من الناس ما سنقوله هنا عن هذا النوع من القراءة، فإنهم سيشعرون بأننا نتحدث عن أمور معجزة وشاقة... والحقيقة أن الكتب التي تستحق كل هذه الفعالية في القراءة ليست كثيرة، كما أن القراء الذين يفعلون ذلك أيضاً ليسوا كثيرين، وهم أنفسهم لا يفعلون ذلك دائماً. ومن وجه آخر فإن أمداء النظرية تظل أبداً أوسع من إمكانات التطبيق كي تستوعب كل الطاقات والإمكانات التي يمكن أن توظف في هذا اللون من النشاط المعرفي، وكي تؤمِّن عدداً كبيراً من البدائل والطرق التي قد يُحتاج إليها عند الممارسة العملية. إن ظروف

القراء تختلف، ووضعية الكاتب والكتاب تتيح ألواناً عديدة من إمكانات القراءة، وينبغي أن تأخذ قواعد القراءة التحليلية ذلك بعين الاعتبار.

لقد ولَّد عصر السرعة في نفوس كثير من الناس نوعاً من الملل والضجر والنزوع إلى الهروب من بذل الجهد على القراءة المتأنية المتعمقة، ودفع بكثير من الشباب نحو البحث عن الكتب السهلة التي يمكن للمرء أن يقرأها وهو مستلقٍ في سريره، لكنهم سرعان ما يكتشفون أن ما استفادوه من قراءاتهم ضحل للغاية، وهذا إذا لم نقل: إن بعض الكتب قد فُهم فهماً سيئاً، وبعضها لم ينوِّر قارئه، وإنما أورثه الخبال!.

ولذا فسوف أفيض في توصيف القراءة التحليلية، وبيان محاورها، آملاً في تحسين درجة الوعي بهذه المسألة المهمة.

سمات القارئ الجيد:

كلما رجعنا إلى الوراء وجدنا تركيزاً أكبر على مهمة الكاتب وواجبه في توضيح مراميه وخدمة النص الذي يكتبه

مهما كان ذلك ممكناً. وكان يُنظر إلى دور القارئ على أنه دور سلبي، ومؤطر بإمكانات النص اللغوية واللفظية في أكثر الأمر.

وهذا في تصوري فرع عما ساد ثقافتنا في القرون الأخيرة من روح الجمود والتقليد، والنظر بحرفية زائدة إلى قطعية مدلولات كلام الكاتب و(تقولبها) ضمن الأصول والمفاهيم المعرفية السائدة في العلم الذي يكتب فيه...

لكن هذا كله قد تغير اليوم بفعل ما حدث من تغير هائل في النظر إلى كل (الوسائط المعرفية) وكل المناهج الأدبية والنقدية واللغوية... ولقد كان للنقاد والفلاسفة دور خطير في تطوير ذلك. وقد صار ينظر اليوم على نحو متزايد إلى أن (النص) أشبه بحدث مؤجَّل التحقق، وخارج دائرة الإنجاز، ما لم تتم قراءته وتأويلاته ضمن الإمكانات التي يتيحها النص للقارئ الناقد والقارئ العادي والقارئ المزيَّف أيضاً. وصار يعتقد أن (جمالية التجاوب) لن تتحقق ما لم يكن هناك فجوة بين ما يعرفه القارئ وبين ما يفاجئه به النص من انزياح عن خبرته، وعن الخبرات السائدة، بل وعن قدراته الناجزة على الفهم.

إن النص الجيد هـو النص الذي يشـتمل على فراغـات معرفية، وملء هذه الفراغات من الآن فصاعداً صار من مهمة القارئ الجيد، وحين يشرع القارئ في سدها تبدأ رحلة التواصل بينه وبين الكاتب. لا يعني هذا بالطبع أن يضيع النص بين القراء وخصوصيـات تجاوبهم معه، بمقدار ما يعني توسيع ميـادين الاستجابة له وإضفاء مرونة أكبر على كل آليات الفهم. وقد أعطى النقد الحديث اعتبـاراً أكبر لوضعيـة الخلفيـة الثقافية للكاتب، ولما قبل الكتابـة ولـ(اللاوعي) و(اللاشـعور) بل وللنوايا المستترة. . . وبهذا كله تم إلى حدٍّ ما تهميش دور اللغة في التوصيل، إلى جانب زيادة الأعباء على القارئ وتعاظم ما عليه إنجازه في فعل القراءة.

لا يعني كل هذا أن مسؤولية القارئ ذات قدر واحد، مهما تكن المادة التي يقرؤها فستظل القراءة في الكتب العلمية أسهل، وستكون مسؤوليات القارئ فيها أقل. وستظل القراءة في الكتب التي تتناول مسائل فلسفية وأدبية أشق، وسيكون ما يطلب من قارئها من فعالية أكثر. لكن هذا قد يشهد أيضاً نوعاً من التغير، حيث إن ما يجتاح العالم من خيبة أمل في إنجازات

العلوم البحتة على الصعيد الإنساني، قد يدفع إلى الاتجاه نحو إضفاء بعد فلسفي وأخلاقي على المؤلفات العلمية، مما يعني أنها ستقترب في النهاية من العلوم الإنسانية، وستنحو بذلك إلى شيء من الصعوبة.

وسنحاول هنا ذكر أهم ما نرى أن على القارئ أن يحاول اكتسابه على الصعيد الأخلاقي، وعلى صعيد الفعالية، كي يستطيع الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من عطاءات الكتب التي يقرؤها، وذلك على النحو التالي:

١ ـ المثابرة على القراءة، والحماسة في متابعتها سمة هامة من سمات القارئ الجيد. وإن الذين أنجزوا إنجازات عظيمة في التاريخ كانوا دائماً يتحلون بصبر لا يعرف النفاد، وعزيمة على المضي حتى آخر الطريق، لا تعرف الانثناء. وأمراء أولئك العظماء، هم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن تابع مسيرتهم من أئمة العلم والدين، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

إن اعتقاد المسلم أنه ما دام يقرأ شيئاً نافعاً، فهو في عبادة

من أعظم العبادات، ينبغي أن يدفعه بقوة إلى امتلاك روح الدأب، وأن يفجر في نفسه ولعاً بالقراءة والاطلاع. وأعتقد أن غياب هذا الشعور كان ذا أثر كبير في عزوف كثير من الناس عن اصطحاب الكتاب ومعاناة قراءته.

مهما أتقنا من فنون المذاكرة والقراءة، فإننا لن نبلغ القمة ما لم نجعل من مفاهيمنا الأساسية في الإنجاز والإنتاج: أن أهم عامل في النتائج التي سنحصل عليها هو كمية الجهد ومقدار الوقت الذي نبذله في سبيل تحقيقها والوصول إليها. إن إبداعات المبدعين، لا تقف وراءها الومضات الذهنية ـ على نحو أساسي ـ وإنما القدرة على المتابعة المضنية للمسائل التي كرسوا أنفسهم لها.

وفي هذا يقول (أديسون) حين سئل عن العبقرية: «إنها ١٪ إلهام و٩٩٪ عرق جبين»! إن كثيراً من الناس لا يحتاج إلا إلى الشرارة الأولى حتى يبدأ مسيرة القراءة، وبعد ذلك سيؤدي التراكم المستمر لمعلوماته إلى إحساسه بمباهج المعرفة، وسينمي ذلك فيه الشعورَ بالثقة والاعتزاز، وسيضيف إلى حياته معنى جديداً لا يضيفه إلا العلم، وسيمثل كل ذلك

الوقود المطلوب لمتابعة رحلة القراءة! .

٢ ـ القارئ الجيد يتمتع بقابلية جيدة لاستيعاب الجديد، ويمتلك بنية عقلية متفتحة، تقبل التحوير، وتستفيد من المراجعة. ونعتقد أن التربية والبيئة والقراءة وحوادث الحياة تبني عقلية كل واحد منا، ومن خلال تلك العقلية يتم امتصاص المعلومات الجديدة وتصفيتها، وإصدار ردود فعل محددة تجاهها، وهذا ضروري لمتابعة النمو والاستيعاب؛ لكن كثيراً ما يحدث أن تكون البرمجة الأولى خاطئة أو قاصرة؛ مما يعني أن الاعتماد عليها على نطاق واسع، سيحرم الإنسان من فرص الارتقاء الفكري والثقافي.

ولذا فإن على القارئ الجيد أن يملك من المرونة الذهنية ما يتمكن به من دمج المعلومات الجديدة التي يحصل عليها في أنساقه المعرفية المستقرة، كما يتمكن بسبب المستخلصات الجديدة من توسيع أطر الفهم لديه، لتصبح أكثر رحابة، وأكثر استيعاباً للمفاهيم المتباينة؛ بل إن القارئ الممتاز يكون مستعداً لأن يستفيد من القراءة ما يمكنه من هدم بعض ما كان يظنه ثوابت فكرية، وإنشاء ثوابت جديدة، وبذلك كله يكون قد خفّف من

أضرار ما عسى أن يكون أصاب برمجته المعرفية والذهنية الأولى من انحراف وقصور. وهذا هو المعنى العميق للنمو المعرفي. وسيكون بإمكان كل واحد منا أن يروز محصوله المعرفي من وراء القراءة بهذا المرواز.

٣ ـ القدرة على الاستجابة لنبض العصر الثقافي ضرورة لمن يريد أن يقرأ قراءة مثمرة ينتفع بها؛ فعمر الإنسان محدود، وطاقته محدودة، والفرص للتثقف ليست متاحة لنا دائماً؛ هذا بالإضافة إلى أن المواد التي نقرؤها أشبه بالغذاء، ومن الغذاء ما هو سام، ومنه ما يلحق بمتناوله أضراراً فادحة . . .

وإذا كان لكل عصر خبراته ورجاله وكتبه وأسلوبه، فإن علينا أن نعرف حين نختار كتاباً هل ما يقدمه الكتاب من معرفة مناسب لمن يعيش في عصرنا، أو أنه في مقام المنسوخ الثقافي الذي فقد مصداقيته وفاعليته؟.

في اعتقادي أن القارئ الجيد، يحاول أن يقرأ للمبدعين في تخصصاتهم؛ فمن ينابيعهم يغرف الألوف من الكتَّاب المتوسطين، والأفضل أن يشرب المرء من النبع مباشرة، فالقنوات التي يمر بها الماء قد تغير طعمه، وقد تفسده.

من الاستجابة لنبض العصر أن نقرأ كتباً وإحصاءات حديثة في كل العلوم التي تعتمد على التجربة والتقدم العلمي والتقني؛ ولا ريب أن هناك كتباً تحتفظ بالكثير من قيمتها، كأمهات الكتب والمراجع والمعاجم والشعر والقصّ البارع. . . وسيكون من المفيد أن نطلع على بعض الدراسات الحديثة عن تلك الكتب الأساسية.

هناك كتب تشرح أحوال النفوس والقلوب، وكتب أخرى تفسر ضروباً من السلوك، وتقدم تعليلات كثيرة في علوم شتى، وقد ثبت أن كثيراً منها ينطلق من خبرة ومعطيات معرفية ناقصة. وإلى جانبها كتب أخرى، تحمل روحاً عنصرية، همّ مؤلفيها إثبات تفوُّق شعب أو طبقة، وكتب غنية بالممحكات اللفظية والمناقشات السطحية، وهي تحاول جذب القارئ عن طريق المبالغة والتهويل. وكتب كتبها أناس غششة، لا يخشون الله ـ تعالى ـ ولا يتمتعون بأي قدر من الإحساس بالكرامة أو المسؤولية، ودأبهم التزوير العلمي، وحجب بعض الحقائق، واستغلال بعضها الآخر لمصالح وأغراض دنيئة.

هناك كتب كثيرة كتبها كتّاب مفتونون بثقافة الغرب،

وينظرون بعين المهانة لثقافتهم وحضارتهم، وهم يحاولون تكوين تيار من القراء يكون ظهيراً لهم، وهناك وهناك . . .

إن الاستجابة لنبض العصر لا تعني الانفتاح المطلق، وقراءة كل ما هبَّ ودبَّ، لكنها تعني الوعي بالمعرفة التي يحتاجها مسلم اليوم، ليعيش زمانه بكفاءة وفاعلية، والوعي بما يرفع من قدرته على مواجهة التحديات المختلفة.

٤ ـ من المهم للقارئ الجيد أن يعرف كيف يتعامل مع الكتب التي عزم على قراءتها؛ ومن المعلوم أن القراءة المستمرة تولد لدى القارئ حاسة جديدة، يستطيع من خلالها أن يتعرف على الكتب الجيدة التي ينتفع بها، ويستطيع تحسس مقدار ذلك النفع، بالإضافة إلى الاهتداء إلى الطريقة التي سيتعامل بها مع كل كتاب، من حيث السرعة، ومن حيث التلخيص والتعليق ونية العودة إليه مرة أخرى.

أنواع الكتب:

هناك نوع من الكتب، لا يُقرأ دفعة واحدة، مثل أمهات المراجع والموسوعات والمعاجم والشروح الكبرى لبعض

المتون، وإنما يعود إليها طالب العلم عند الحاجة. ولهذا السبب فإنها تحتفظ بقيمها قروناً عديدة.

معظم الكتب في تراث جميع الأمم، لا يتطلب فهمه مهارات قرائية عالية، ولا يتطلب جهداً أثناء قراءته؛ فهو يُقرأ للتسلية، أو للحصول على بعض المعلومات، وهو ممتع في الحالتين، لكنه لا يرفع درجة الفهم لدى القارئ، ولا يعمق إدراكه. وهذا النوع من الكتب لا يقرأ ـ في العادة ـ سوى مرة واحدة، ولا يشعر القارئ بأية حاجة إلى العودة إليه، وسيكون من حسن حظه إذا وجد من يشتريه منه! وهذا النوع ينبغي أن يقرأ بسرعة، ويمكن أن ينتزع قارئه منه بعض المعلومات أو الإحصاءات أو التعبيرات، ويقيده على بعض البطاقات.

وثمة نوع ثالث من الكتب يشعر المرء بأنه بحاجة إلى قراءة بطيئة وتركيز جيد، لكنه يشعر بعد قراءته أنه أخذ كل ما فيه، ولم يبق إلا أن يوضع على الرف؛ وقد يعود إليه قارئه فيما بعد من أجل استقصاء نقاط معينة، أو توثيق إحصائية، أو إنعاش الذاكرة ببعض أفكاره. وفي هذه الحالة يكون من المفيد

أن يدون القارئ بعض ملاحظاته على حواشي الكتاب أو على الورقة البيضاء في آخره توضيحاً لرد فعله عليه، وتسجيلاً لنوع من (التقييم) له. ويمكن القول: إن هذا النوع من الكتب لا يشكل أكثر من ٥٪ مما هو مطروح في الأسواق من كتب.

هناك عدد من الكتب هو أقل بكثير من النوع السابق، يشعر قارئه أنه لم يستنفد كل ما فيه مهما استخدم من مهارات القراءة، وأنه يستحق عودة ثانية، لكن إذا عاد إليه المرء مرة ثانية، لم يجد فيه ما كان يؤمله منه. والسبب أن فهم القارئ قد ارتقى بسبب قراءة ذلك الكتاب، وبسبب قراءة غيره، ولأجل حيثيات معينة، تتعلق بالكاتب أو بالقارئ، يسود شعور بأن الكتاب غير قابل لأن يُعصر ويؤخذ كل ما فيه. هذا النوع من الكتب يحتاج إلى حسن اختيار أولاً، وإلى اهتمام بالغ من القارئ به، بالإضافة إلى استخدام مهارات عالية في قراءته، والرجوع إلى بعض الشروح والمراجع، مما سيتضح من مجمل هذه الرسالة.

النوع الأخير من الكتب نادر جداً، لا يشكل واحداً من

بين عشرة آلاف، وهو نوع لا ينضب محتواه، وكلما عدت إليه شعرت أنه ينمِّيك، وكأنه ينمو معك، فتكشف فيه أشياء جديدة كلما عدت إليه. يجد الفاقهون من المسلمين مثل هذا في القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الرَّدّ، ولا تُستنزف عطاءاته. ويجد بعض أهل الفكر والعلم شيئاً أدنى من ذلك في بعض الكتب التي صيغت بمهارة فائقة، وعالجت قضايا ذات بعد إنساني عميق، مثل بعض الأعمال الأدبية المتفرّدة، وبعض المؤلفات الفلسفية الرفيعة.

هذا النوع من الكتب، هو الذي يتطلَّب من الإنسان أن يُقرأ على نحو مستمر، حتى يؤهل نفسه للارتقاء إلى مستواه، واستكناه مكنوناته وذخائره. ومهما استخدم القارئ من أشكال المقاربة له، وحاول اجتراحه، فإنه سيشعر أنه ما زال بحاجة إلى المزيد. حول هذه الكتب أُقيمت عشرات الدراسات والشروح والحواشي، وما زالت تنفح وتنفح ببعض أسرار الخلود!.

علينا أن نتذكر دائماً أن عدداً كبيراً من الناس يقرؤون لكن

بطريقة عقيمة، وأن عظماء الكتّاب كانوا دائماً قرّاء عظماء، قرؤوا القليل من الكتب، لكن قرؤوه بشكل جيد.

مبادئ وقواعد:

١ ـ مهمة الكاتب أن يوصل إلينا بعض المعاني والأفكار، مما ابتدعه، أو اقتبسه من غيره. ومهمة القارئ تَلَقّي ذلك والاستفادة منه. لكن مؤلف الكتاب، لم يقل لنا كيف قام بمهمته في كتابه، ولا هو ملتزم بأن يبين عن قصده في كل حين، كما أن من غير الممكن أن نجد دائماً مَنْ يشرح لنا ما نقرؤه، ويساعدنا على فهمه وهضمه؛ ولذا فالقراءة التحليلية تلقي ـ كما ذكرنا ـ على القارئ أعباء ومسؤوليات كبيرة في فهم الكتاب الذي بين يديه، واستخراج أفضل ما فيه؛ مما يجعل القراءة الحقّة ليست نوعاً من الاطلاع، وإنما نوعاً من الاكتشاف؛ وعلى القارئ أن يهيِّئ من عقله كل ما يساعده على استيعاب ما أمامه على أفضل نحو ممكن.

إن بين (الفكرة) التي يعبِّر عنها الكاتب، وبين (الكلمة) التي يستخدمها لتوصيلها مسافةً ما قد تكون طويلة، وقد تكون

قصيرة؛ وعلى القارئ أن يقطع تلك المسافة من خلال الملاحظة الحادة والذاكرة المهيَّأة والخيال الخصب، والذهن المتمرس. . . هذه القدرات عينها، يستخدمها الكاتب أثناء الكتابة، ويجب أن يستخدمها القارئ على نحوٍ ما حتى يتم الالتقاء في وسط الطريق.

لا ينبغي أن يُظن أن مهمة استخدام ملكاتنا الذهنية، تنتهي عند الفراغ من قراءتنا لفصل أو موضوع؛ فالقراءة ليست بديلة عن التفكير؛ وليس التفكير مطلوباً للوقوف على مرادات الكاتب فحسب، وإنما تمتد الحاجة إليه إلى ما بعد القراءة من أجل (البرمجة) لما قرأناه ودمجه في أنساقنا الفكرية، وتعزيز الملاحظات التي كوَّناها من قبل؛ فإذا قرأ الواحد منا ساعةً قراءةً تحليلية، فليخصص ثلث ساعة ـ على الأقل ـ للتأمل فيما قرأه، ومحاولة ربطه بما يمكن أن يمثل امتداداً فكرياً ومعرفياً له، من أجل المزيد من توسيع المدارك، وتدعيم قاعدة الفهم. وأعتقد أن القارئ كلما كثرت قراءاته، وتضخم حجم المعلومات التي بين يديه، ازدادت حاجته إلى التفكير.

٢ ـ اللغـة هي أداة التواصل الأسـاسية بين بني البشر، وهناك نوع من التناقض بين متطلبات استمرارها ونموها وبين متطلبات وظيفتها الأساسية باعتبارها ناقلاً للمعرفة بين المتكلم والسامع وبين الكاتب والقارئ؛ فاللغة كائن مبدع، والإبداع هو سـر عظمتهـا، وقدرتهـا على الوفـاء بالحاجـات الإنسـانية المتسعة والمتجددة، لكن سر عظمتها هذا هو نقطة الضعف الكبرى فيها؛ فالتجدد المستمر والتوسع في المصطلحات، وأشكال الاستعمال المختلفة، وغيوم العواطف والدلالات الفرعية، وما يشوب استخدامها من ألوان الحقيقة والمجاز. . .

كل ذلك جعل إمكانية الإحاطة بها والتمكن من متابعة تجديداتها أمراً مستحيلاً، يواجهه كل متعامل معها، مهما أوتي من مهارة وخبرة؛ ولذا فاللغة ناقل غير جيد وغير شفاف؛ وكلنا يلحظ ما يدور في حياتنا اليومية من جدل حول مدلول بعض الكلمات، ومايحدث من سوء فهم في تفسير مانقرأ، وما نسمع.

ولذا فإن على القارئ أن يكون على وعي تام بالمعنى اللغوي للمفردات التي يقرؤها؛ وحين يكون للكلمة أكثر من معنى في اللغـة ـ وهذا هو الأكثـر ـ فإن عليـه أن يعتمد على

السياق، وعلى تذوقه الخاص للّغة في تحديد أيّ معاني الكلمة أراد الكاتب.

كما أن عليه أن يفرق بين المدلول اللغوي وبين المدلول الاصطلاحي للكلمة، فكلمة (عامل) حين يستخدمها (نحوي) تؤدي معنىً مختلفاً عن المعنى الذي تؤديه حين يستخدمها مهندس أو صاحب مؤسسة. وكلمة (مشهور) و(صحيح) كلمة فنية ذات مصطلح خاص عندما يستخدمها عالم الحديث، على حين يكون لها معنى عام مرن حين يستخدمها لغوي أو جغرافي أو واحد من عامة الناس، وهكذا... والمؤسف أن هناك حقولاً معرفية عديدة، لا تتمتع كلماتها الفنية بتأسيس جيد أو شهرة كافية؛ مما يربك فهم القارئ كلما صادفها أثناء قراءته.

ومن وجه آخر فإن على القارئ أن يهيّئ آلية الفهم المناسبة للمجال الذي يقرأ فيه، فالكتّاب الذين يكتبون في مجال عَقَدي أو فقهي أو قانوني يكونون أقرب إلى الحرفية والدقة في استخدام اللغة، وينبغي أن يستجيب القارئ لذلك، ويتعامل مع ما يقرأ بعين الأسلوب الذي كُتب النص به. في المجالات الأدبية والفلسفية والحضارية عامة، يستخدم الكتّاب عادة عبارات

وأساليب موحية وغنية بالظلال، فهي تزجي المعنى، ولا تسجنه، وهي بعيدة عن التقرير والتوضيح المباشر، ويجب أن نتعامل معها برحابة فكرية وخيال خصب، وإلا قد لا يكون نصيبنا منها أكثر من سوء الفهم!.

٣ ـ سيكون مما يسهِّل قراءة أي كتاب ـ في أي علم ـ معرفة المصادر والمراجع التي رجع إليها المؤلف، فمصادر أي باحث توجه مضامين بحثه، وتترك الكثير من بصماتها على طبيعة تناوله لموضوعه، كما أنها تحوي الكثير من الصيغ والأساليب والمصطلحات الفنية الخاصة المستخدمة في ذلك العلم، كما أن فيها الكثير من الشروح للمسائل التي يتناولها الكاتب الذي أخذ منها؛ وهذا كله سوف يساعد القارئ على فهم الكتاب الذي بين يديه.

لا شك أن هذا شاق، لكن ما دام الهدف هو المزيد من الفهم والعمق المعرفي، فيجب دفع الثمن عن طيب خاطر. ومعرفة عدد محدود من المراجع ولو واحداً خير من لا شيء.

إن مصادر أي بحث، تشكل جزءاً من تاريخ العلم الذي ينتمي إليه البحث؛ ونحن في الحقيقة لا نفهم أي علم حتى نفهم

تاريخه فهماً جيداً؛ وإن الذي لا يعرف تاريخ العلم الذي يقرأ فيه أشبه بمن فتح عينيه في غرفة، لا يدري إلى أي حي، ولا إلى أي مدينة تنتمي؛ ولذا فسيكون من المهم جداً لمن يرغب في معرفة جوهر علم من العلوم أن يطلع على كتابين أو ثلاثة في تاريخه، ليعرف كيف تشكَّلت مفاهيمه ومقولاته، ويستشرف المساحات التي يمكن أن يتم فيها بعض الإضافات إليه. ويؤسفني القول: إن هذه المسألة شبه مهملة لدى معظم قرائنا الجيدين!.

مما يساعد كذلك على فهم الكتاب الرجوع إلى الموسوعات، وهي كثيرة اليوم ومنظمة تنظيماً حسناً، مما يسهل الاستفادة منها.

المعاجم هي الأخرى ضرورية لكل قارئ بل لكل منزل، ويستحسن أن يكون في مكتبة كل طالب علم ثلاثة معاجم: معجم صغير ومعجم متوسط ومعجم كبير، ويمكن العودة إلى كل منها على مقدار ما تمليه الحاجة.

كتبنا التراثية ـ خاصة ـ حظيت بعناية فائقة من قبل العلماء والمختصين على مدار التاريخ، ولذا فإن من المألوف أن نرى

للكتاب الواحد الشروح والحواشي وحواشي الحواشي، مما يزيل عنه أي غموض، بل إن بعضها قد ظفر بأكثر من عشرين شرحاً؛ وألفية ابن مالك ظفرت بـ (١٢٧) شرحاً! وبإمكان القارئ أن يستفيد من كل ذلك أو بعضه في فهم الكتاب الذي يقرؤه.

٤ ـ إن القراءة التحليلية الجيدة، تعني نوعاً من (التفلية) للكتاب، ومحاولة إضفاء نوع من التنظيم على محتواه الداخلي من أجل تسهيل استيعابه. بعض الكتّاب الجيدين يذلل للقارئ عملية الفهم من خلال ترقيم الفقرات، أو وضع خطوط تحت العبارات المهمة. . .

لكن هذا ليس متوفراً في كثير من الكتب الجيدة، مما يعني أن على القارئ أن يفعل ذلك من أجل إيجاد نوع من إيجاد التصور المنطقي المتسلسل لمسائل الموضوع، وتوضيح أو حصر الفِقَر والجمل والكلمات المحمَّلة بتركيز خاص من المعاني، أو تلك التي تشير إلى أهمية خاصة في نظر المؤلف أو نظر القارئ، أو تلك التي تحوي تلخيصاً لما سبقها.

وهناك طرق عديدة لذلك؛ إذ يمكن وضع خط تحت

الجمل المهمـة، ووضع خط شـاقولي على هامـش الكتـاب للإشارة إلى المقاطع المهمة، كما يمكن وضع نجمة أو أكثر إلى جانب الجمل الأكثر أهمية. ويمكن وضع دائرة بقلم رصاص على الكلمات ذات الدلالة الخاصة، وتلك التي في استخدامها نوع من الطرافة أو التجديد اللغوي.

بعض القراء يستخدم القلم (الفوسفوري) المظهر لإبراز ما يريد إبرازه من النص، كما أن بعضهم، يضع قصاصات ورق عند الصفحـات المهمـة، أو يطوي طرف الصفحـة. ويمكن تجاوز ذلك إلى تسـجيل بعض الأسـئلة المهمـة على ما أورده المؤلـف، أو الإجابـة على بعض الأسـئلة التي طرحها المـؤلف مما يشـكل اسـتجابة لتسـاؤلاته، أو يشـكل نـوعاً من العرض لوجهة نظر أخرى مغايرة. . .

وهكذا فالأساليب كثيرة، والمهم دائماً أن تعكس تلك الإشارات اهتمام القارئ ودرجة عنايته بما يقرأ، وأن تعكس أيضاً ردود فعله عليه، من أجل فائدته الخاصة، ومن أجل فائدة من يقرأ الكتاب بعده.

تساؤلات مهمة:

سيكون من واجب كل قارئ حريص على أن ينفذ إلى أعماق النص، ويوسع فهمه عن طريق قراءته؛ أن يعمد إلى توجيه عدد من الأسئلة قبل قيامه بشراء الكتاب وأثناء قراءته، وبعد الفراغ منها. وهذه التساؤلات سوف تزيد من درجة وعيه بما يأمل الحصول عليه من الكتاب الذي يقرؤه، كما أنها ستساعده على تفحص المكاسب التي حصل عليها. ولعل أهم تلك التساؤلات ما يلي:

١ ـ إن الكاتب الجيد، يستحضر عند كتابة كتابه فئة أو شريحة معينة من القراء، يوجه إليها كتابه، وهو يحاول دائماً بَلْوَرة معالمها، كما يحاول مراعاة مستواها المعرفي، ومراعاة الخلفية الثقافية التي تتخذها قاعدة لقراءة النصوص، كما يحاول أن يتحسس الأسلوب الذي يناسبها، وأن يتحاشى العبارات التي يَعْسُر فهمها عليها... وقد يُوَفَّق الكاتب في ذلك، وقد لا يوفق.

والسؤال الذي على القارئ أن يطرحه على نفسه: هل أنا من الشريحة التي يستهدفها المؤلف، ويوجِّه إليها خطابه؟ وهذا

السؤال ضروري؛ لأن قراءة كتاب ليس موجهاً إليك قد لا تنفعك بأي شيء؛ حيث قد لا تطَّلع على أي جديد فيه؛ كما أن الكتاب إذا كان أرقى من مستواك، أو يبحث في حقل مفعم بالمصطلحات الفنية، فإنك قد لا تستفيد منه إلا القليل. والأسوأ من ذلك كله أن تقرأ كتاباً يمسُّ على نحو صارخ ما تعتقد أنه مقدس أو يمثل ثوابت فكرية، لا يصح أن يتعرض لأي نقد... إن القراءة آنذاك لن تُكسب القارئ سوى الحنق والمرارة.

إن القراءة التفحصية أو التصفحية التي أشرنا إليها، يمكن أن تساعد الإنسان على الإجابة على هذا السؤال.

٢ ـ من المهم في القراءة التحليلية أن يعرف القارئ (هُوية) الكتاب والجنس المعرفي الذي ينتمي إليه. وقد يكون إدراك هذا الأمر سهلاً، لا يحتاج إلى تساؤل، لكن من الواضح أن المعرفة العامة في هذا الشأن قليلة الجدوى؛ إذ إن الفائدة من وراء معرفتنا أن ما نقرؤه هو كتاب في الفقه ـ مثلاً ـ هي معرفة محدودة جداً؛ حيث إن الأهم من ذلك أن نعرف إلى أي المذاهب الفقهية ينتمي: هل يقرر مسائله اتباعاً للشافعي، أو لمالك... وهل هو كتاب يتناول كل أبواب الفقه، أو أنه يتناول

باباً بعينه مثل باب الزكاة أو الصلاة أو البيوع . . . ثم هل الكتاب مخصص لسرد المسائل دون سوق الأدلة عليها، أو هو كتاب احتجاج واستشهاد ودفع لقول المخالف . . . ثم هل الكتاب من الكتب المعتمدة لـ (الفتيا) في المذهب أو لا؟ ثم ما الأفكار الأساسية التي أعطاها المؤلف جُلَّ عنايته، وما الأفكار الهامشية أو الثانوية التي مر عليها بسرعة، أو أَجملَ القول فيها، ثم ما أهمية المعلومات التي قدمها الكاتب للقارئ، وهل تتطلب نوعاً من التعديل في سلوكه أو فكره، وهل غيَّرت انطباعات سابقة لديه؟؟.

كلما استطاع القارئ أن يعبِّر عن هذه الأسئلة على نحو دقيق وموجز كانت فائدته مما يقرأ أعظم. وإذا استطاع أن يتحسس الأجوبة على هذه الأسئلة فإن وعيه بالوضعية العامة للكتاب الذي يقرؤه سوف يكون جيداً. ومن المؤسف أن أكثر الذين يقرؤون، لا يهتم بمعرفة شيء مما ذكرناه، وهو ينسى بعد مدة قصيرة اسم مؤلِّف الكتاب، تمهيداً لنسيان كل ما قرأه فيه!.

٣ ـ من الأسئلة الحيوية التي على القارئ أن يوجهها لنفسه، أسئلة تتعلق بمدى استيعابه لما قرأه. والحقيقة أن

الكتاب الجيد، قد لا يستطيع أفضل القراء أن يستنفد كل ما فيه من خلال قراءة واحدة، والمسألة نسبية؛ ولذا فمن المهم أن يتأكد القارئ من أنه فعلاً قد فهم مراد المؤلف.

وأدوات اختبار الفهم عديدة، لعل من أهمها أداتين:

الأولى: أن يحاول القارئ أن يأتي بأمثلة وملاحظات على القواعد والأفكار والملاحظات التي يثيرها الكاتب؛ ومع أن هذا شيء سهل في بعض الأحيان إلا أن ذلك عسير حين يكون مستوى الكتاب رفيعاً؛ فالكتّاب الكبار، يولِّدون في العادة الكثير من الأفكار الجديدة، ويبثونها في كتبهم، وتلك الأفكار تحتاج حتى تتبلور، وتنزل من أعالي النظر إلى ساحات التجسيد والممارسة إلى وقت وإلى دعم من أفكار أخرى؛ مما يجعل الإتيان بأمثلة عليها صعباً، ليس على القراء فحسب، وإنما على الكتّاب أنفسهم في بعض الأحيان؛ وهذا يجعل مسؤولية تجسيد الأفكار في بعض الشواهد والأمثلة والمقاربات المحددة مشتركة بين الكتّاب والقراء. وكلما استطاع القارئ المجيء بأمثلة وصور أكثر كان في ذلك دلالة على جودة استيعابه وارتقائه إلى مستوى ما قرأه.

الثانية : محاولة القارئ تلخيص ما قرأه في عبارات وفقر محددة، بأسلوبه الخاص. إننا إذا رددنا عين الكلمات والجمل التي قرأناها نكون قد اعتمدنا على الحفظ بدل الفهم؛ وعلى مقدار ما نتمكن من صياغة ما قرأناه في عبارات وجمل متعددة، تكون درجة تأكدنا من الفهم والاستحواذ على ما اطلعنا عليه.

أحياناً يُفتن القارئ بجمال العبارة وحسن تركيبها ورونقها، فيحمله ذلك على حفظها والتخلي عن محاولة التعبير عن معانيها بعبارات من عنده؛ ومع أن هذا يدل على روح شاعرة، وقدرة على الفهم، إلا أن إيجاد البديل قد يكون أداة تدريب على طريق تحسين أسلوب القارئ، والارتقاء بمستوى تعبيره وصياغته.

٤ ـ ليست الكتابة الجيدة عبارة عن مجموعة من الإجابات على تساؤلات مطروحة في الساحة الفكرية؛ وليس الكاتب الجيد هو ذلك الذي يعتقد أنه يقدم للناس حلولاً شافية لكل إشكالاتهم فحسب؛ فالتقدم المعرفي فسح مجالات واسعة للقول، وهذا في حد ذاته، يولِّد نوعاً من الحيرة، ويضفي على منتجاتنا الفكرية نوعاً من الاحتمالية، كما أنه يساعد على طرح المزيد المزيد من الأسئلة حول القضايا التي يقوم الباحثون بمعالجتها؛ ولذا

فالكاتب الجيد، يقدم حلولاً لمشكلات مطروحة، ويطرح في الوقت نفسه أسئلة، ويثير إشكالات جديدة حول قضايا كان يُظن أنها حُسمت، وأُغلق فيها باب الكلام.

مهمة القارئ أن يسأل نفسه: ما المسائل التي حاول الكاتب حلها، وتقديم رؤى جديدة حولها، وإلى أي مدى استطاع إقناع القارئ بحلوله. ثم ما الأسئلة الجديدة التي طرحها الكاتب في القضايا التي يعالجها، وما مدى جدية تلك الأسئلة وموضوعيتها، ثم هل بإمكان القارئ أن يجيب على بعض تلك الأسئلة، أو يتخذ منها موقفاً محدداً؟.

إن المقصود من كل هذه التساؤلات أن يختبر القارئ درجة وعيه بطبيعة الموضوع الذي يقرؤه، وأن يدرِّب ذهنه ومَلَكاته على الفهم العميق والشامل لمجمل الإشكالات والحلول المعرفية التي تصادفه أثناء قراءته.

الحوار مع الكاتب:

الكتابة عمل ينقل معلومات، ويعبر عن مفاهيم وأفكار، ويرغب الكاتب ـ عادة ـ أن يكون مفهوماً لدى قارئه، بل كثيراً

ما يود أن يكون مقنعاً. وحين يصل الكتاب إلى يد القارئ تكون وظيفة المؤلف قد انتهت؛ حيث إنه حفر الجزء الذي يليه من النفق، وعلى القارئ أن يحفر من جهته الجزء المتبقي حتى يصبح اللقاء ممكناً. ويمكن أن نقول أكثر من ذلك؛ فالكلمة الأخيرة ليست كلمة المؤلف، وإنما هي كلمة القارئ؛ فهو الذي سيقرأ، وهو الذي سيتفاعل ويقتنع، وينقل قناعاته إلى غيره. إن الكتاب لا يحيا، ولا يبلغ أهدافه إلا به؛ ولذا فإن موقفه حيوي للغاية.

إن بداية الحوار ستكون من قبل المؤلف، فهو الذي ينبغي عليه أن يقنع قارئه أن كتابه جيد، ويستحق قراءة جيدة، كما يستحق التساؤل والمناقشة والنقد...

وعلى القارئ أيضاً أن يبدأ من جهته بداية صحيحة؛ وذلك بألا يبدأ الحوار واتخاذ موقف مخالف قبل أن يتأكد من أنه فهم الكتاب على نحو جيد، فسوء الفهم ليس حادثاً نادراً، وحين يعلن قارئ أنه لم يفهم ما قاله الكاتب، فإنه يكون قد حمى نفسه من الفهم الخاطئ؛ لكن المشكلة أن كثيرين من القراء لا يرون أي حرج في الإعلان عن أنهم استوعبوا ما قرؤوه

على نحو جيد، وأن من حقهم أن يخالفوا الكاتب فيما ذهب إليه؛ وتكون الحقيقة غير ذلك.

إن الكتب الجيدة، لم تكن كذلك إلا لأن فيها أشـياء تستعصي على فهم فئة من القراء، ولأن فيها أشياء جديدة، وأشياء أخرى تثير نوعاً من الجدل والخلاف، وهذا كله يحفز على الحوار، ويدعو في الوقت نفسه إلى إحداث أشكال من الفهم المتعدد.

لا ريب في أن الهدف الأساسي من قراءة أي كتاب، ينبغي أن يكون هو الاستفادة والارتقاء في معارج العلم والفهم، وتحسين المحاكمة العقلية لدى القارئ؛ وإن نقد الكتاب، ومحاولة العثور على وجهة نظر أخرى غير وجهة نظر المؤلف دليل قوي على أن تقدماً ما قد حدث لدى القارئ، وأن الفائدة المرجوة قد حصلت.

في الساحات الثقافية نوعان سيئان من القراء: نوع يقرأ قراءة المستسلم للكاتب المعتقد بصواب ما يقوله؛ ولذا فإنه يتلقّى ما يقرأ كما تُتلقى البدهيات واليقينيات؛ وهو لا يرى في نفسه أية أهلية لمناقشة الكاتب أو نقد الكتاب. وكان على هذا

النوع من متلقي المعرفة أن يدرك أنه ليس من الغريب أن يعبِّر الكاتب عن تجربة ناقصة أو رؤية محدودة أو مشوهة، كما أنه ليس من الغريب أيضاً أن يكون الدافع وراء التأليف هوىً شخصياً أو تعصباً لبلد أو مذهب أو حزب، أو أن يكون الدافع هو الحصول على مكسب مادي، أو الرضوخ لضغوط معينة من بعض الجهات. . . ولا بد لكل ذلك أن يكون على حساب الحقيقة الناصعة الكاملة التي نسعى إليها جميعاً.

إن أي مؤلف يعيد النظر فيما كتب، يجد فرصة للتعديل والتحوير والإضافة؛ مما يدل على أن الباب يظل مشرعاً لغيره ـ من باب أولى ـ بأن يفعل ذلك. ويمكن أن نقول بشيء من الجرأة: إنه ليس هناك كتاب ـ حاشا كتاب الله ـ جيد ليس فيه أخطاء، أو لا يحتمل النقد والمراجعة، أو التحسين والتجويد. وسيكون من الخطأ أن يظن القارئ أن مرونته ـ أو قل: سلبيته ـ تجاه الكاتب ستعود عليه بالنفع.

هناك إلى جانب هذا النوع نوعٌ من القراء، همه الأكبر أن يعثر على الثغرات والهفوات فيما يقرأ؛ ولذا فإنه يستعجل في القراءة، ويقرأ بعين واحدة، وتولِّد تلك الرغبة الجامحة لديه

رؤية نصفية، لما يقرؤه، كما تدعوه إلى الحَيْف، وربما إنطاق الكتاب بما لم يُرِدْه الكاتب. . . إنه قارئ (مشاكس) وتناقل المعرفة لديه ليس أكثر من مشاحنة! وكثيراً ما يقف حول هذا التوجُّه نفسيّة مريضة، تُصَوِّر لصاحبها أن في موافقة الكاتب والتسليم له نوعاً من الإهانة للذات، أو نوعاً من الانهزام أمامه! .

إن حاجة الساحة الثقافية للتخلص من هذين النوعين من القراء ملحَّة حتى يبلغ التدفق المعرفي منتهاه، وحتى لا تتشوه البنية المعرفية التي يساهم كل من الكاتب والقارئ في تشييدها. وفي كل الأحوال فلا ينبغي أن يفهم الحوار مع الكاتب على أنه تتبع للهفوات والنواقص، إن هذا هو الوجه الأول منه؛ ولا يقلّ عنه أهمية قدرة القارئ على كشف مساحات الجمال في النص الذي يقرؤه والقبض على الأفكار والإضافات والنقاط الجديدة التي تمكَّن الكاتب من شرحها على نحو ممتاز، ولمس هذا كثيراً ما يكون أشق من معرفة الأخطاء. إن النقد نوع من التثمين والتقييم الشامل للمنتج المعرفي وتحديد موقف جلي منه.

إن القارئ الجيد، لا ينجح في فهم الكتاب فحسب،

وإنما يتجاوز ذلك إلى فهم التيار المعرفي أو المذهب الذي ينتمي إليه الكاتب، إنه يعرف رؤيته الثقافية الشاملة، وتوجهها المعرفي العام في التخصص، والمجال الذي نذر نفسه للعمل فيه. وهذا يساعده على ترشيد حكمه النقدي، إذ قد لا يتمكن الكاتب من بسط وجهة نظره كاملة في الكتاب الذي بين يدي القارئ؛ لأنه بسطها في كتاب آخر، وقد يكون الكتاب الذي بين يدي القارئ موجزاً بطبيعته؛ مما لا يسمح بالتفصيل. ومعرفة القارئ بالتوجه العام للكاتب هي التي تحجزه عن إصدار حكم مبتسر غير ناضج.

من وجه آخر لا ينبغي للقارئ أن يصدر حكماً نهائياً على الكاتب من خلال الكتاب الذي قرأه، إلا إذا تبين له أنه آخر كتاب له، فالكاتب الجيد ينمو باستمرار، وخلال نموه يتخلى عن بعض الأفكار، ويؤمن بأفكار جديدة، ومن الإنصاف أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار.

سيكون من السهل على أي قارئ أن يوجه النقد إلى أي كتاب؛ فليس من العسير أن يقول: إن معلومات الكاتب حول الموضوع الذي عالجه ناقصة، أو أنه لم يستطع استخدام

المعلومات التي بين يديه استخداماً حسناً، أو أن يقول: إن تحليله للمشكلة ليس كاملاً. . . وعلى هذا فإن أعظم الكتب يمكن أن يُحطَّ من شأنه من قبل أضعف القراء؛ وهذا ما يحدث ـ مع الأسف ـ في أوقات كثيرة!.

لتلافي ذلك، فإننا نرى أن نقد القارئ ينبغي أن يكون محدداً ومفصلاً ومعلَّلاً؛ ويمكن أن نقترح بعض النقاط التي تشكل مساقات لنقد القارئ لما يقرأ؛ وذلك في الآتي:

١ ـ إن كثيراً من الكتَّاب، لا يكتفون بعرض وجهات نظرهم حيال الموضوع الذي يعالجونه، بل يسعون إلى إقناع القارئ بوجهة نظرهم، وهذا شيء مشروع، لكن الملاحظ أن بعض الكتَّاب يلجأ في إقناعه إلى استخدام البيان والخطابة بعيداً عن الإحصاءات والمعلومات الضرورية للإقناع؛ كما يفعل قائد عسكري حين يستخدم كل إمكاناته الكلامية في بث الحماسة في نفوس جيشه من أجل خوض معركة لم يتدرب ولم يتسلح لخوضها! وسيكون بإمكان القارئ أن يلمس وجوه الإطناب والمبالغة التي استخدمها الكاتب من خلال فحص دقيق لمحتوى

الكلمات ودلالاتها. وهذه الظاهرة من أكثر النواقص الكتابية شيوعاً لدى الكتّاب.

٢ ـ بإمكان القارئ أن يقول في نقده: إن بعض المعلومات التي نقلها الكاتب عن غيره ليست صحيحة، كما أن بإمكانه القول: إن الكاتب لم يأت ببراهين مقنعة على ما يدعيه. والقاعدة البحثية العامة في هذا الشأن، هي: «إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل» فتوثيق المعلومات المنقولة وتحري صحة طرق نقلها هو ما على الكاتب أن يفعله تجاه ما ينقله من أقوال وأرقام وأفكار...

فإذا كان الكاتب يبدع فكرة جديدة، أو يدلي برأي جديد، فإن عليه أن يسوق من البراهين ما يقنع به قارئه؛ لكن لا ننسى أن بعض الاجتهادات والآراء المبتكرة، لا يستند إلى أدلة وبراهين محددة، حيث إنه من الاحتمالات الواردة في أصل القضية. ومن هذا القبيل كثير من التحليلات السياسية وكثير من الاجتهادات في المجالات الفلسفية والحضارية والتنموية خاصة.

ولا يعني هذا أن هذا النوع من الادعاء أو الاجتهاد

لا يصح نقده، وإنما يعني أن قائلـه لا يُطالب بأدلـة، كما أن المنتقد يمكن ألا يدلي أيضاً بأدلة على ترجيح وجهة نظره.

٣ ـ مما يمكن أن يكون نقداً محدداً القول: إن الكاتب أهمل عوامل أساسية أثناء بعض معالجاته؛ مما جعلها ناقصة. وهـذا في الحقيقـة شـائع في كثيـر من الكتـابـات في عالمنـا الإسـلامي؛ وأذكر أنني قرأت مقالاً في جريدةٍ سـيارةٍ لكاتـب مشهور، يدلل فيه على أن العالم الإسلامي لا يعاني أية أزمة سكانية، وأن هناك أكثر من ٣٢ مليون هكتار من الأراضي البور التي تنتظر من يزرعها...

وفات ذلك الكاتب أن مشكلة الناس اليوم لا تنحصر في العثور على موطئ قدم يقفون عليه، ولا في الحصول على رغيف الخبز؛ فالأمر أعقد من ذلك بكثير؛ فأفضل الأراضي في العالم الإسلامي قد زرع، وما لم يزرع يحتاج إلى استصلاح وإلى ماء؛ وبعض الدول غير قادرة على جمع محاصيلها أو تسويقها، وبعضها يعاني من مجاعة مع وفرة الأرض والمياه.. وبعض الشعوب الإسلامية يتجاوز اليوم ١٢٠ مليون نسمة، وهو يعيش في رقعة أرض ضيقة لا تزيد على ١٤٤ ألف كم٢

ـ بنغلاديش ـ على حين أن هناك بلداناً قليلة السكان واسعة المساحات، لكن تفصلها بعضها عن بعض حدود وتقسيمات صارمة؛ فالعالم الإسلامي لا يشكل كتلة اقتصادية واحدة، وليس هو عجينة لينة، بإمكاننا أن نشكلها كيف شئنا . . .

إن كل هذه المعطيات تجعل الكثير من استنتاجات الكاتب خاطئاً وقاصراً. ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن ـ زيادة على كل ما ذكرناه ـ أن نصيب الفرد المسلم من الأرض أقل من غيره، فعلى حين يقترب المسلمون من أن يمثلوا ربع سكان العالم فإن مجموع الأرض الإسلامية لا تزيد نسبته إلى مجموع اليابسة على ١٠٪، وهذه النسبة في تناقص مستمر نظراً لتزايد السكان.

المهم في كل نقد يوجَّه لأي كتاب أو كاتب أن يوضح ما الذي كان على الكاتب أن يفعله، وأن يتم تدعيم وجهات النظر التي نرى أنها بديل صالح للصورة التي قدمها، وكلما تمكنا من فعل ذلك أثبتنا أننا لم نقرأ الكتاب فحسب، وإنما أعدنا إنتاجه من جديد.

❊ ❊ ❊

خامساً ـ القراءة المحورية :

على الثقافة حتى تظل حية أن تظل متجددة؛ والحفاظ على قيمتها وكرامتها يتطلب منها أن تُغني نفسها، كما يفعل الجسم مع خلاياه. وكما أن في الجسم خلايا نبيلة ـ كخلايا الدماغ والقلب ـ لا يقبل الخلل فيها أي إصلاح، والذي يموت منها لا يمكن تعويضه، فكذلك في الثقافات مبادئ ومسائل لا تقبل التغيير، ولا التجديد؛ لأنها روح الثقافة وثوابتها وأصولها الكبرى. وكأن العمل الثقافي على هذا عبارة عن بَلْوَرة جديدة للأصول، وتطوير وتجديد لما سواها.

من المتعذر اليوم أن يستمر نمط العالِم الموسوعي الذي يلم بعلوم عصره. ونموذج الفقيه المفسر الطبيب الفلكي الذي قدمه بعض علمائنا في التاريخ يبدو أنه قد انتهى إلى غير رجعة[1]. والعالم الذي يصر على أن يفعل ذلك، سيكوِّن ثقافة يصعب

---

(١) كانت فروع العلوم الطبيعية في الولايات المتحدة الأمريكية قبل نصف قرن نحواً من ثلاثين فرعاً، وهي الآن تزيد على ألف فرع!.

الوثوق بها، حيث سيضطر إلى الرضوخ إلى اختيارات علماء كثيرين مع العجز عن اختبار الحد الأدنى من مصداقيتهم وفروضهم العلمية والبحثية؛ ونظراً لاتساع دوائر التخصصات على نحو مستمر، فسيجد نفسه صاحب معرفة سطحية، وربما سوقية أيضاً!.

إن التقدم الرأسي في العلم يتطلب التخصص الدقيق، وتركيز الفكر والخبرة والبحث في بؤرة معرفية ضيقة، حتى يمكن الوصول إلى شيء جديد ذي قيمة.

إن التخصص هو أن يبني الإنسان معرفة مدققة في موضوع ما مكتفياً بالمعرفة العامة في باقي الموضوعات؛ وهذا التدقيق يجعله يعرف عدداً قليلاً ومترابطاً من التكوينات بمستوى أفضل، مقارنة بباقي التكوينات، وهو يتعامل بصورة مستمرة مع حقائق فرعية؛ لأنه ينحو منحى الدقة لا التعميم.

لا ينبغي أن يُفهم من هذا أنني متحمس لإيجاد المتخصص المنغلق على نفسه؛ فهذا غير وارد، ولكن الذي أرمي إليه، هو أن يوجد لدينا عدد كبير من المتخصصين المنفتحين على

التخصصات الأخرى، ولا سيما التخصصات والمعارف التي تتبادل التأثير والتأثر فيما بينها والتي يمثل كل منها امتداداً طبيعياً لغيره.

إن المتخصص في العربية ـ مثلاً ـ سينتفع انتفاعاً عظيماً من خلال القراءة المكثفة في اللغات السامية وفي الأسلوبية الحديثة، إلى جانب المنطق القديم والحديث، كما سينتفع بالقراءة كذلك في علوم النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا والأجناس والسلالات البشرية؛ حيث إن في هذه العلوم من المعطيات والتجديدات المعرفية ما يفتح آفاقاً رحبة للبحث والتطوير بما يمكن أن يساعد علوم اللغة على التقدم على نحو مدهش.

لا يجوز لنا أن ننسى أن اتجاه النمو دائماً يكون نحو الدقة والاتساع؛ الدقة تعني أنني أستطيع أن أقترب من الرؤية المطلقة للتكوين بمعرفة جزئياته الأدق وارتباطاته الأدق. واتساع مجال الرؤية، يعني أن أرى تكوينات جديدة في هذا الكون، كما أبدعه الخالق؛ جل وعلا. وبين العمق والاتساع جدلية رائعة إذا صيغت بوعي كامل؛ وسيتولد عن تلك الجدلية طاقة استبصارية هائلة لدى القارئ.

والذي يعنينا هنا ليس شرح القراءة والثقافة الموسوعية، وإنما شرح القراءة المحورية، وذكر بعض التخصصات والقضايا التي يمكن لبعض الناس أن يقرؤوا فيها بتركيز وعمق. فما هي القراءة المحورية؟ القراءة المحورية، هي تلك القراءة التي تستهدف الوقوف على معلومات وأفكار ومفاهيم، تتعلق بموضوع معين، كما يفعل باحث أراد أن يكتب في موضوع ما، فإنه يحاول أن يطلع على مصادر المعلومات المختلفة التي تقدم له مادة أو خلفية أو رؤية تساعده في إنجاز عمله.

مما سبق في الحديث عن (القراءة التحليلية) أدركنا أنها تستهدف استخراج كل ما يمكن استخراجه من الكتاب المقروء؛ فتملُّك ما في الكتاب وفقهه هو الغاية منها؛ ولذا فإننا ذكرنا قواعد وآليات عديدة لبلوغ ذلك. أما في القراءة المحورية فإن الاطلاع على كتابٍ ما لا يسعى إلى ذلك على نحو أساسي، وإنما يسعى إلى استخراج ما يخدم الموضوع الذي يستهدف القارئ بناءه؛ ولذا فقد لا يقرأ القارئ قراءة محورية سوى فصل أو باب أو صفحة من كتاب، ويتجاوز الباقي.

البدايـة:

كثيراً ما تبرق عناوين لقضايا أو مشكلات، يرى المرء أنها تستحق البحث والمعالجـة، ولكن التجربة علمتنا أن مصداقية الحدس في هذا الشأن محدودة جداً، وكثيراً ما يجد المرء بعد البحث أن الموضوع الذي ظن أنه يمكن أن يكون محوراً لقراءات مكثفة قد قُتل بحثاً، أو أنه من الضآلة بحيث يصعب إبرازه على أنه قضية فكرية أو معرفية تستحق العناء؛ ولذا فإن ما يلمع في الذهن، لا يفيد أكثر من أنه فتحٌ لباب أو بناء لرأس جسر، وبعد ذلك علينا أن نختبر واقعة ذلك.

الخطوة الأولى: في القراءة المحورية، تتلخص في أن يطلع القارئ على الكتب والمراجع التي تعرض الأدبيات العامة للعلم الذي ينتمي إليه الموضوع الذي يقرأ من أجله، ويستحسن إذا أنهى القارئ كتاباً في ذلك أن يقرأ كتاباً أو أكثر مما يعرض وجهات نظر معارضة لما قدمه الكتاب الأول.

وفي الغالب، فإن مثل هذا الاطلاع لن يمكن القارئ من التأكد من صدق حدسه بالموضوع الذي برق في خاطره،

وسيحتاج إلى قراءات عديدة في كتب أخرى في التخصص، تكون أكثر تركيزاً على المعلومات المتعلقة بالموضوع.

ويمكن للقارئ أن يتعرف على الكتب التي تخدم موضوعه من خلال الاطلاع على فهارس بعض المكتبات، ومن خلال الاطلاع على مسارد مراجع بعض الكتب التي تناولت الموضوع نفسه أو موضوعات قريبة منه، كما أنه ستكون هناك فائدة كبيرة من سؤال أحد المختصين أو الباحثين في ذلك العلم أو في الموضوع محل الاهتمام.

بعد أن يجمع القارئ/ الباحث ما يمكن جمعه من مراجع ومصادر يظن أنها تساعده في الإحاطة بموضوعه؛ فإن عليه أن يقوم بقراءة تفحصية سريعة للكتب التي بحوزته، أو أكثرها، من أجل تحديد الموضوع الذي سيقرأ من أجله بدقة، فإذا وفِّق إلى ذلك، فإن عليه أن يقوم بقراءة ثانية من أجل استبعاد الكتب التي لا تخدم موضوعه، ومن أجل استخراج النصوص التي تهمه إلى بطاقات خارجية، أو وضع علامات عند الصفحة التي فيها. والطريقة الأولى أعون ـ وإن كانت تأخذ وقتاً أكثر ـ على بناء هيكل الموضوع ورسم خطوطه العريضة.

الخطوة الثانية: وتتمثل في قراءة الفصول والمقاطع والنصوص التي يرى أنها لصيقة بموضوعه، ويجب أن تكون القراءة هذه المرة تحليلية، وأن تخضع لعين القواعد والطرق التي ذكرناها هناك في القراءة التحليلية.

بعض القرّاء لا يفعل ما ذكرناه، وإنما يقرأ كل مصادره بتمعن بالغ، وينقل منها نصوصاً كثيرة، ويقضي في ذلك وقتاً طويلاً، وعند البدء في بناء الموضوع يجد أن كثيراً مما نقله إلى بطاقاته، وصرف وقتاً في قراءته، ليس بحاجة إليه.

نعم يمكن الدمج بين القراءة التفحصية والتحليلية في حالة واحدة: إذا كانت الفصول والأبواب ومعظم العناوين الفرعية واضحة لدى القارئ من خلال القراءة العامة، لكن هذا نادراً ما يحدث، ولذا فإن القراءة التحليلية تستهدف في الغالب وصول القارئ إلى صياغة عدد من الأسئلة التي تغطي موضوعه، والتي تشكّل أجوبتها الفصول والأبواب والعناوين الرئيسة للبحث الذي يقرأ من أجله.

وعلى سبيل المثال فإذا كان البحث يستهدف تَجْلِية مسألة (البطالة) في قطر من الأقطار، وجب على القارئ أن يصوغ

أسئلة من نحو: ما تعريف البطالة، وما حجم وجودها في ذلك القطر، وما جذورها التاريخية، وما أسبابها القريبة والمباشرة، وما آثارها ومفرزاتها في الحياة الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ومن هي الجهات المسؤولة عنها، وكيف يتم علاجها، وما التغييرات والتطويرات التي يجب إحداثها لتقليصها، وما هي التكاليف المادية والأدبية التي تحتاجها تلك التغييرات، ومن الذي سيتولى قيادة عملية المعالجة، وما المدة التي يمكن أن يستغرقها، وما العقبات التي يمكن أن تقف في طريقها، وهل الإمكانات والأدوات المتوفرة تسمح بمعالجة جذرية، أو أن المعالجة ستكون جزئية...؟؟.

حين تتم صياغة هذه الأسئلة وأشباهها على نحو واضح، فإن ذلك يعني أن هيكل البحث صار واضحاً، ويجب الانتقال إلى الخطوة الثالثة.

الخطوة الثالثة: وتتمثل في توزيع النصوص التي اخترناها على الأسئلة التي استطعنا بَلْوَرتها؛ وهنا تتبدَّى قدرة القارئ الجيدة على الاستفادة مما بين يديه؛ حيث إن الأجوبة على

الأسئلة، لن تكون في كثير من الأحيان مباشرة ولا صريحة، ولن يجد القارئ كل الأجوبة على أسئلته في كتب تنتمي إلى الاختصاص نفسه.

وحين يجد القارئ أجوبة أسئلته لدى كاتبين أو ثلاثة أو عشرة، فهذا يعني أنه ليس لديه مشكلة سيتولى حلها، أو إضافة معرفية قيّمة، يَرْكُم بها المعرفة المتوفرة حولها.

إن القارئ هنا بحاجة إلى درجة عالية من الشفافية حتى يلتقط أجوبة أسئلته من نصوص ربما كانت في الأساس بعيدة عن حقل الموضوع الذي يعالجه، كما أن عليه أن يقوم بعملية ترجمة فكرية واسعة للمفاهيم المختلفة التي تخدم موضوعه، ثم سبكها في كتابه بلغته الخاصة ووفق نسقه الفكري ومسلماته المعرفية.

ومما هو جدير بالملاحظة أن المرء قد يعثر على نص قيم جداً في كتاب تافه، أو في كتاب يبحث في مجال بعيد عن مجال الموضوع الذي يقرأ حوله؛ والقراءة الانتقائية تتكفل في العثور عليه.

وبعد كل هذا فينبغي على القارئ أن يكون على وعي بأن المصادر التي جمعها قد تعالج موضوعه معالجة قاصرة أو

خاطئة، ربما لأنها انطلقت من أفق عقدي أو معرفي غير الأفق الذي يراه صحيحاً، وآنذاك فينبغي أن يمتلك من الفطنة والقدرة ما يحرره من الخضوع لتلك المراجع، والتبعية لمقولاتها ومحكّاتها ونتائجها، من خلال استغلال ما تتمتع به البنية المعرفية من مرونة؛ حيث من الممكن أن تستخدم الأفكار ضد منتجيها، حين توضع في سياق مغاير. وإذا فعل ذلك فإنه سيضمن لعمله بعض مشخصات خصوصيته واستقلاله.

لا ينبغي أن ننهي الحديث عن القراءة المحورية دون أن نشير إلى أن من واجب الشباب المسلم الذي امتلك بعض أدوات التثقف وطرفاً من المعارف المختلفة أن يسعى إلى أن ينظم قراءاته؛ لتكون أكثر فائدة. وهذا لن يتأتى إلا من خلال جعل جلّ مطالعاته مطالعات هادفة، ومخصصة لخدمة موضوع بعينه، حيث لم يعد مجدياً اليوم أن يقنع المرء نفسه أنه متخصص في التاريخ أو الشريعة أو الفيزياء... على نحو ما أوضحناه سابقاً، ولا يخفى على أحد أن (البحث العلمي) لدى أمتنا متخلف إذا اعتبر بما لدى معظم دول العالم، وذلك بسبب ضعف الإنفاق على مراكز البحوث، وقلة المشتغلين بالتخصصات الفرعية المختلفة.

وإن باستطاعة كثيرين منا أن يجعلوا من بيوتهم ومكتباتهم ومكاتبهم الخاصة وحدات مصغرة للبحث العلمي؛ وأشعر أن الذي يحول دون ذلك هو ضعف الوعي من جهة، والكسل من جهة أخرى، وهما العاملان الرئيسان اللذان قعدا بكثير من المتعلمين والمثقفين لدينا عن القيام بواجبهم في هذا المجال.

إن ما يدرسه خريج كلية الشريعة ـ مثلاً ـ من علوم شرعية كاف لتكوين أرضية فكرية ومعرفية لا بأس بها، لكنه لا يكفي أبداً لجعله باحثاً. والمطلوب منه أن يبحث في موضوع أو في فرع من فروعها الكثيرة، ويجعله مركز اهتمامه وتنقيبه ومطالعاته.

إن أي شاب متوسط الذكاء يمكنه خلال خمس سنوات من القراءة الجيدة والجادة في (فقه الزكاة) أو (فقه الصلاة) أو (التأمين) أو (القياس) أو (اجتهاد الصحابة). . . أن يصبح حجة ومرجعاً على مستوى قطر أو منطقة في موضوع من هذه الموضوعات وأشباهها، وسيتمكن من المحاورة والتأليف بل الاجتهاد فيه، وسيتمكن من إضافة أفكار كثيرة، وبلورة مسائل عديدة من مسائله. . .

ويمكن أن يقال مثل هذا عن خريج اللغة العربية أو

التاريخ أو الجغرافيا أو الطب أو الهندسة . . . وتصور معي لو أن ١٪ من خريجي كلية الشريعة اقتنعوا بهذه الفكرة كيف ستكون الحال؟!

سوف نجد أمامنا مئات الشباب الذين أصبحوا مراجع علمية موثوقة في مئات الموضوعات الشرعية؛ مما يؤدي إلى تجديد العلوم الشرعية، وإثراء مساحة التخصص بالكتابات الجادة والنتاج العلمي الرصين . . .

إن أصعب نقطة هي البداية، لكن لنكن على ثقة أننا سندهش من أنفسنا عندما ننطلق! لن يحتاج الأمر إلى تعطيل علاقاتنا الاجتماعية، ولا أن يحبس الواحد منا نفسه في مكتب لا يرى فيه الشمس . . . إن الأمر يحتاج إلى الالتزام التزاماً جاداً ودقيقاً بقراءة ساعتين يومياً مدة خمس سنوات على نحو متواصل، وستكون هناك ـ بإذن الله تعالى ـ نتائج باهرة، هي فوق ما نظن، وأكثر مما نؤمل. ولست أظن أن أمامنا سبيلاً أخرى لرفع مستوى المعرفة في بلادنا سوى هذه السبيل، ولست أظن أننا عاجزون عن مثل هذا، وإذا كنا عاجزين عنه، فما هو الأمر الذي نستطيعه إذن؟!.

* * *

قراءة كتاب في التاريخ (نموذجاً)

لا نرمي هنا إلى التحدث عن طرق أو قواعد خاصة علينا أن نسلكها، أو نلتزم بها في قراءتنا لكتاب من كتب التاريخ؛ فما ذكرناه من قواعد وملاحظات في القراءة التحليلية والمحورية، يمكن استخدام أكثره في قراءة أي كتاب مهما كان الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه، لكننا نريد هنا أن نوضح أهمية أن يمتلك القارئ شيئاً من (الخلفية المعرفية) عن طبيعة العلم الذي يقرأ فيه.

إن معظم الكتب التي يقرؤها الواحد منا، تتناول بعض المسائل والموضوعات في بعض العلوم، لكنها لا تمنحنا رؤية واضحة حول نوعية الأحكام والمعالجات التي تتم في ذلك العلم، كما لا يتبين لنا مدى مصداقية التعميمات والقوانين التي يستخدمها الباحثون فيه؛ مما يولِّد الكثير من الانطباعات الخاطئة

لدى القـراء؛ بالإضافة إلى نـوع من القصور في حساسـية الإدراك، ونوع من العتمة في الشفافية المطلوبة منهم لاتخاذ موقف معرفي جيد مما يقرؤونه.

ولهذا كله نرى أن معرفة القارئ بتاريخ العلم الذي يقرأ فيه، وبطبيعته ومشكلاته الحقيقية، ستعود عليه ببصيرة معرفية لا تقدر بثمن؛ وستكون حاجة الذي يقرأ الكتاب قراءة محورية إلى هذا النوع من البصيرة أكثر إلحاحاً.

وقد اخترت أن أقدم للقارئ الكريم هذه الخلفية عن (علم التاريخ) لما له من أثر خطير في حياة الناس، ولما أثاره ويثيره في حياتنا الفكرية والمعرفية من إشكالات تفوت الحصر!.

ولعلي أوجز ما أظنه يساعدنا على تشكيل رؤية حول هذا العلم في المفردات الآتية:

١ ـ تعرَّض (التاريخ) إلى مواقف متباينة كثيرة؛ فقد أفرط في تقديره وتقديسه قوم حتى صار عندهم كل شيء، فهو (علم العلوم) وليس أي علم آخر إلا مجرد ظاهرة تاريخية! وقال قوم آخرون: إنه لا يصلح أن يكون علماً، كما لا يصلح لعمل، وهو لا شيء!.

يقول (جوفنر) العالم الإنجليزي: «من السخف أن نفكر في التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح»!.

إذا سلمنا بأن التاريخ علم، فمن أي العلوم هو؟.

ليس كالفلك علم معاينة مباشرة.

ولا هو كالكيمياء علم تجربة واختبار.

لكنه علم نقد وتحقيق.

يرى الأستاذ (هرنشو) أن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً بالتاريخ هو (الجيولوجيا)... «يجد الجيولوجي مادته الأساسية فيما سَلِمَ من نفايات الطبيعة من أدلة قليلة، تشير إلى التطورات الجيولوجية القديمة. ويعتمد المؤرخ في معرفة الوقائع الماضية على آثار أو سجلات أو تقاليد سلمت اتفاقاً أو عن قصد من عوادي الزمن، وقيمتها في دلالتها على الماضي لا في ذاتها.

وهذه الدلالة ليست مباشرة، ولكنها تتشكل من خلال مرورها بفكر الباحث؛ لأن الوقائع والآثار مغمورة في محيط من الآراء والإرادات والانفعالات التي كانت تلك الوقائع

والآثار معبرة عنها أو أثراً لها؛ وهذه كلها خارجة عن المعاينة المباشرة حتى بالنسبة إلى من كانوا شهود العيان؛ وعلى المؤرخ أن يقوم بـ (الجراحة النفسية والعقلية) ليستشرف العوامل الخفية».

لكن بين التاريخ والجيولوجيا مفارقةٌ كبيرة، فالصخور شواهد محايدة، لكن وثائق التاريخ وثائق تتصل بمختلف جوانب حياة الناس، وكتبتها يد إنسان، ويدرسها أيضاً إنسان له عواطفه ومعاييره ومسلَّماته ومصالحه...

٢ ـ مهما امتلك المؤرخ من عناصر مساعدة على قراءة التاريخ (مثل الآثار والنقوش والوثائق المختلفة) فإنه لا يستطيع أن يجد كل المواد التي يحتاجها في بناء الصورة التي يوضحها للناس. وقصور الصورة لا يعود إلى أن بعض أجزائها مفقود، ولكن أيضاً لأن الذين يكوِّنون الصورة عن حالة مدينة ما في مرحلة ما ـ مثلاً ـ ما هم إلا جزء من الصفوة، والتي ربما تكون قد تشبعت بفكرة معينة، وظنت أن الوقائع المؤيدة لفكرتها جديرة بالبقاء والنشر؛ لكن ما هو انطباع العامة والمشتغلين بغير التاريخ من الناس؟ هذا ما لا نعرفه!.

إذا كان القاضي في محكمة اليوم، لا يستطيع أن يتأكد دائماً من أنه أصدر أحكامه بناء على معطيات الحقيقة اليقينية التي توصل إليها، على الرغم من وجود الشهود بين يديه، وعلى الرغم من إمكانية فحص أشياء مرئية كثيرة، تتعلق بالقضية موضع الحكم؛ فكيف يعرف المؤرخ التفاصيل المطلوبة لمعرفة حقيقة، تفصله عنها مئات السنين؛ كما أن التفاصيل التي سيعتمد عليها في بناء الحدث التاريخي ليست من اختياره دائماً؛ فكثيراً ما تكون قد اختيرت له من قبل أناس صدقوها وأرادوا من الآخرين تصديقها! .

إن إشكالية المسألة التاريخية، لا تنتهي عند جمع معلومات مجردة؛ حيث إنها أيضاً أسلوب رواية وطريقة تحليل ومنهج تركيب، وهذه مجتمعة تشكل أدوات تقديم المعرفة التاريخية.

٣ ـ من أخطر ما يتعرض له العمل التاريخي هو (الانتقائية) فالروايات المتعددة والمتضاربة أحياناً حول حادثة ما، تُلزم المؤرخ أن يختار منها ما يتناسب مع رؤيته العامة لتلك الحادثة، وحين تتوفر معلومات كثيرة حول واقعةٍ ما؛ فإن المؤرخ سيضطر

إلى الاختيار، وإلا خنقه سيل الوقائع المجدبة التي لا تربط بينها أية رابطة.

الانتقاء الذي يقوم به المؤرخ يجعل البنيان التاريخي كله انتقائياً، أي أن ثقافة المؤرخ وحدسه ومدى اطلاعه على الواقعة التي يؤرخ لها ومركَّبه العقلي العام ومزاجه وخياله... كل ذلك وسائط وأدوات معرفية، تسهم في تشكيل الصورة التي اجتهد المؤرخ في تقديمها. وما دام عمله اجتهادياً، فإنه إذن سيظل محتملاً للخطأ والصواب.

٤ ـ طبيعة العمل التأريخي تملي نوعاً من الالتزام الأدبي على المؤرخ نحو قرائه؛ فهو إلى جانب شعوره بضرورة توخي الدقة والأمانة، يشعر بضرورة تقديم صورة كاملة أو شبه كاملة عن الحدث الذي يؤرخ له. المعلومات مهما كانت وافرة، فإنها ـ في الغالب ـ لا تكون كافية لمعرفة الجذور العميقة للحدث، ولا الدوافع التي أدت إليه، ولا السياق العام الذي وقع فيه، ولا النتائج المختلفة التي ترتبت عليه...

ولذا فإن المؤرخ يعتبر الحقائق القليلة المتوفرة لديه، تمثل كل الحقائق المحيطة بالحدث، وعليه من جهته أن يسد

الثغرات، ويكمل النواقص التي فيها؛ ولن يكون ذلك إلا من خلال إصدار سلسلة من الأحكام المقبولة، والتي ترسم في النهاية صورةً ما للواقعة التي يتحدث عنها.

ومن المعلوم جيداً أن اليونان اخترعوا (التعليل) من أجل تلافي الثغرات التي يتركها الاستقراء الناقص، وما يستخدمه المؤرخ من تفسير وتعليل وتأويل في تشخيص الحدث التاريخي، قد يعتمد على بعض الحقائق التاريخية، لكنه في جوهره عمل منطقي عقلي فلسفي، يستهدف تمليك القارئ رؤية متماسكة للواقعة التاريخية، وإضفاء نوع من المنطقية على تصرفات البشر، وهذا لن يتم إلا من خلال بعض التعميم للمفاهيم المتعلقة بطبيعة الناس، وما نعرفه من ميولهم وسلوكهم، وهذا معرَّض لأن يتم بصورة مبالغ فيها.

وليس في كل ذلك ما يعيب إذا استطعنا أن نبصر حجم الدور الذي يقوم به المؤرخ في تكوين الصورة التاريخية، وإذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار عند التعامل مع تلك الصورة واستنباط العبرة منها.

٥ ـ اختلاف المؤرخين في سوق الأحداث وتحليلها

واتخاذ موقف شخصي منها، يعود إلى أسباب كثيرة، بعضها يمكن لمسه وتحديده، وبعضها غير مرئي، يصعب وضع اليد عليه؛ ولعلنا هنا نشير إلى أهمها في المفردات الآتية:

أ ـ للمزاج تأثيره في صياغة الحدث التاريخي، حيث يتشكل لدى المؤرخ عبر حوادث ومواقف وقراءات... نوع من انطباع محدد تجاه أشخاص أو فئات أو مذاهب أو بلدان أو حقب تاريخية، وهذا الانطباع مع مرور الأيام يصبح جزءاً من المزاج الفكري والعقلي الذي يؤثر في مقولات المؤرخ وتحليلاته؛ فقد كان (كارليل) يعشق عظماء الرجال، على حين كان (ويلز) ينفر منهم، كما كان يكره أيضاً مشاهير العسكريين.

وهناك إلى جانب هذا أهواء التحيز أو الافتراضات المرتبطة باتباع المؤرخ جماعة معينة، مثل انتمائه لوطن أو عنصر أو طبقة أو مذهب... وهذه أصعب اكتشافاً، حيث يتجلى الهوى في صورة مبدأ معلَّل ومدعم بالحجج والشواهد.

من العسير جداً على مؤرخ مسلم أن ينظر إلى العصور الوسطى الأوروبية من عين المنظار الذي ينظر منه الأوروبي أو الأمريكي إليها. كما أن من العسير على المؤرخ الغربي أن

يؤسس نظره إلى الدولة الأموية أو العباسية على عين الأصول والمبادئ التي يتكئ المؤرخ المسلم عليها خلال تسجيله لأحداثها.

ب ـ مهما بلغ المؤرخ من العالمية، ومهما امتلك من النظرة الكونية للأمور والحوادث، فإنه في النهاية يظل ابن بيئته ومحيطه، ووليد لحظات زمانه المتغير.

الواقعة التي يشاهدها لها عنده صداها المختلف عن الواقعة التي قرأ عنها لمؤرخ آخر من مكان مختلف وزمان مختلف. المؤرخ أيضاً ليس آلة تسجيل، بل هو في الأساس راوية، يقرأ الأحداث من أفق تجربته الخاصة، وخبرته الذاتية. وهو حين يعاين الأحداث في لحظة قوة أمّته وتماسكها، لا يستطيع أن يسجلها ويحللها إلا من خلال روح التفاؤل والأمل والتركيز على العناصر الإيجابية فيها...

على حين أن المؤرخ الذي ينتمي إلى أمة ضعيفة ومفككة، ينظر نظرة ملؤها التشاؤم والتلاوم، حتى إنه لتغيب عنه بعض عناصر القوة والنجاح بفعل زخم الانكسار الذي يعاني منه هو وأمته.

إن البيئات الجغرافية والاجتماعية والثقافية، بكل ما تحمله من ثوابت وملامح ومعطيات وتقاليد ومفاهيم وأفكار وأمزجة تبرمج آلية التفكير والتحليل والتفسير . . . لدى المؤرخ؛ وهو لا يستطيع أن يتخلص من تأثير ذلك كلياً ـ مهما حاول ـ لأن تلك البرمجة، تشكل (النافذة) التي ينظر منها إلى كل ما حوله.

الأمثلة على البرمجة البيئية أكثر من أن تحصى، ومن الأمثلة القريبة ما ذكره صالح المقبلي صاحب كتاب (العلم الشامخ) حول (أهل البيت) حيث قال: «إنهم مظنَّة الخير ومئنَّته، وسرّ النبوة سارٍ فيهم لائح في أعمالهم ومكارم أخلاقهم، بل في صورهم الحسية، يرى غالب الناس الرجل بديهة، فيقطع أو يظن أنه من أهل البيت، **ولقد كنا في اليمن ما يكاد يتخلف هذا علينا لصحة أنسابهم**». مع أن الرجل نعى على أهل اليمن الكثير من صور التعصب، إلا أنه في النهاية، لم يستطع أن يتحرر من التأثيرات السائدة في بيئته!.

كما أن للبيئة المكانية برمجتها الخاصة، كذلك للبيئة الزمانية دورها المؤثر، فلكل عصر مقولاته وثقافته وأوهامه،

وكل من يعيش فيه، سوف يتأثر بكل ذلك مهما حاول أن يكون شفافاً ومرفرفاً، ومهما امتلك من مؤهلات التجاوز. إن فكر البشر تجري قولبته من قبل البيئة الزمانية والمكانية، ولا يختلف في هذا الرجل البدائي عن الرجل المتمدن؛ ولذا فقبل أن تدرس المؤرخ ادرس بيئته التاريخية والاجتماعية.

ج - حاول الباحثون في فلسفة التاريخ أن يقفوا على العوامل الرئيسة التي تتحكم في سير التاريخ، ويمكن اتخاذها أساساً في تفسير أحداثه؛ وقد تشعبت بهم السبل، وأخذ منهم الاختلاف كل مأخذ في العامل الحاسم:

هل هو البيئة الطبيعية؟.

هل هو السلالة العرقية؟.

هل هو الخصائص النفسية؟.

هل هو العوامل الاقتصادية؟.

هل هو البطولات القيادية؟.

هل هو المعتقدات؟.

وقد وجد كل عامل من هذه العوامل أنصاره ومؤيديه

الذين يستطيعون دائماً ألا يروا سواه مؤثراً في أحداث الحياة. وعلى سبيل المثال فإن القائلين بتأثير البيئة الطبيعية قد غالوا في هذا الأمر إلى درجة أن (راتزل) الألماني يزعم أن كل مظاهر النشاط الإنساني يجب أن تعلل بالعوامل الطبيعية، وهي أبداً ثابتة، وذات تأثيرات ونتائج حاسمة. وبعبارة أخرى فإن النشاط الإنساني، لا بد أن يتشكل بشكل معلوم إذا نشأت حوله بيئة طبيعية خاصة؛ بل إن بعض أنصار (راتزل) وصل بهم الحد إلى القول: «إذا عاد التاريخ أدراجه، فلا بد أن يسلك نفس السبل التي سلكها من قبل متى اتفقت الظروف الطبيعية»!.

في محيطنا العربي الإسلامي حاول عدد من المفكرين العثور على كلمات (سحرية) تصلح مفاتيح لفهم التاريخ الإسلامي عامة والعربي خاصة، نزوعاً منهم إلى نوع من الأحادية التي جذبت عدداً كبيراً من الباحثين في فلسفة التاريخ؛ وعلى هذا فمفتاح التاريخ الإسلامي عند عبد الله العلايلي هو (القبيلة)، وعند عبد العزيز الدوري هو (العصبية القومية)، وعند أدونيس هو (الخلافة) وما أفرزته من معارضة، وهكذا...

حين يكون المؤرخ مؤمناً بواحدة من هذه النظريات

الكثيرة التي أشرنا إليها، فإنه لا يجد بدأ من التركيز على كل ما يدعم نظريته؛ وهو في سبيل ذلك سيركز على إظهار كل العناصر والعوامل التاريخية التي تسهم في تشكيل صورة للأحداث من أفق اختياره ومذهبه في تفسير التاريخ، كما أنه سيعمد إلى إخفاء أو تجاهل العناصر والأجزاء التي تفيد غير ذلك، وسيكون ذلك على حساب الواقعة التاريخية، أو على حساب التصور النقي لها.

٦ ـ النتيجة التي يمكن أن ننتهي إليها من وراء كل ما سبق هي أنه ليس في أعمال المؤرخين موضوعية مطلقة؛ ونحن بين خيارين، مؤداهما واحد: فإما أن نعتقد أن للتاريخ موضوعيته الخاصة به، والتي تختلف عن الموضوعية العلمية، وإما أن نقول بموضوعية ناقصة.

وإنما نقول ذلك لأن المؤرخ مهما أكثر من محاولات إلزام نفسه بالبعد عن التحيز، وحاول التركيز على فهم ما حدث فعلاً، فإنه لن يتوقى ذلك على نحو تام؛ لأن الفهم ليس مسألة سلبية، بل يتضمن الحكم على الأدلة بوساطة مبادئ، يفترض صحتها افتراضاً مستقلاً؛ فالفهم الذي يحصل عليه المؤرخ

معتمد أولاً على مدى نجاحه في إيجاد (ذاتية) منفصلة عن الموضوعات التي هي محل عمله؛ لكن من المؤسف أن نقول: إن هامش المناورة في هذا الشأن محدود جداً، فالمؤرخ لن يمكنه أن يبدأ في فهم أحداث التاريخ إلا إذا افترض افتراضاً سابقاً بعض القضايا الخاصة بالطبيعة الإنسانية، واستخدم بعض القضايا مما هو مألوف ومفهوم في السلوك الإنساني، وهذا سيكون من معطيات اطلاعه وثقافته وبيئته وعصره!.

كثيراً ما نرى الباحثين يثقون بعمل المؤرخين المعاصرين للأحداث التي يكتبون عنها، نظراً لمعرفتهم بالأجواء والظروف التي وقعت فيها تلك الأحداث، ولأنهم أيضاً قد أمنوا ما يمكن أن يقع في أعمال غير المعاصرين من كذب الرواة وأوهامهم وتلويناتهم للأخبار... لكن لأن العمل التاريخي يظل محاطاً بالضرورات والمكدرات فإن المعاصرة نفسها لا تخلو من مشكلات، فقد يخضع المؤرخ لضغوط أدبية ومادية قاسية من بعض الجهات... وقد تولِّد المعاصرة لديه نوعاً من الحسد والمنافسة لمن يؤرخ لهم...

وقد تجلى شيء من ذلك في محاباة المسعودي للخليفة

القاهر ـ مثلاً ـ حيث اكتفى في التعبير عن قسوته بأن ذكر أنه: «كان شهماً شديد البطش بأعدائه» وأغضى طرفه عن حادث تعذيب القاهر لأم المقتدر الذي وصفه ابن كثير وصفاً مؤثراً بعد وقت طويل. ولا يخفى ما فعلته المعاصرة والمنافسة بين أبي حيان التوحيدي، وبين الصاحب بن عباد وأبي الفضل بن العميد، حتى قدَّم أبو حيان صورة مستقبحة للصاحب بن عباد، تناقض ما كتبه الثعالبي ـ مثلاً ـ. وقد اشتهر أيضاً تحامل السخاوي على كل من السيوطي والبقاعي.

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب في هذا الشأن: «إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بني أمية وقيام دول لا يسرّ رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله، فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف: طائفة كانت تنشد العيش والجدة من التقرب إلى مبغضي بني أمية بما تكتبه وتؤلفه. وطائفة ظنت أن التديُّن لا يتم ولا يكون التقرب إلى الله ـ تعالى ـ إلا بتشويه أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً. وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدِّين كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير رأت أن من الإنصاف أن تجمع

أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب. . .

ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك إرضاءً لجهات، يشعر بقوتها ومكانتها. وقد أثبت هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه».

إن نظرة متعمقة في تناول الكتّاب والصحفيين والباحثين لأحداث الواقع ـ بجوانبه المختلفة ـ سوف تمنح القارئ شفافية عالية للوضعيات التي كُتب بها كثير من أحداث التاريخ. . .

٧ ـ حين يقع حدث تاريخي ما، فإنه لا يقع في فراغ فكري أو اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو جغرافي، فهذه الجوانب التي تكتنف أعمالنا، تظل عوامل مؤثرة في صياغة حجم الحدث ومضمونه، ودلالته ونتائجه ووقعه في حس الناس المعاصرين له. . . وما لم يراعِ المؤرخ وقارئ التاريخ معاً كل ذلك، فإنه قد يسيء الفهم، ويقع أسيراً لروايات لا يأتي الاستسلام لها إلا بالتخبط وعمش الرؤية.

والسنن الربانية في مجملها تعمل على بَلْوَرة طبائع الأشياء ومنطق تطورها، كما تحدد المدى الذي يمكن

للأحداث أن تتأرجح فيه، وهذه كلها تمثل الفضاء الذي تولد فيه الواقعة التاريخية، ولا بد من معرفة كل ذلك على وجه حسن.

صحيح أن الواقعة الاجتماعية يكون تأثير العوامل الاجتماعية فيها أقوى، كما أن الواقعة السياسية تتأثر أكثر بالعوامل السياسية... لكن لا هذه ولا تلك يمكن أن تكون بمنجاة من العوامل الأخرى؛ ولذا فإن نزع أي نص تاريخي من سياقه وبيئته، سيؤدي إلى سوء التعامل معه، وسوء تقدير دلالته. إن الناس لا يتغيرون بين يوم وليلة بسبب حدث طارئ، ومع أن التغيرات تتم حقاً، لكن ببطء... والشعوب لا تصنعها آلات، ولا تصب في قوالب... إنها تتطور وتتحور وفق قوانين نفسية واجتماعية واقتصادية، لها حكمها وسيرورتها وأوانها.

لا بد لفهم حوادث التاريخ من دراسة الفكر المشترك والثقافة السائدة في موطن الواقعة التاريخية، ولا يستطيع أي دارس أن ينفد إلى فهم حقيقة الأحداث في حياة أي أمة أو قبيلة إلا إذا درس المعتقدات والعادات والظروف المختلفة التي تكتنفها؛ ومن هنا فلن يدخل أي باحث إلى تاريخ المسلمين إلا من باب (الإسلام) ليعرف الدين الذي نفذ إلى الأعماق،

وتفاعل مع النفوس التي صنعت هذا التاريخ .

وقد حاول ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) أن يبلور بعض الأسس والمبادئ التي يمكن على هديها فهم طبائع الأشياء والعادات، وفهم تأثير البيئة ـ بكل أنواعها ـ في حدوث الواقعة التاريخية، وهو يقول في تقرير ذلك: «لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمَن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المَغالِطُ في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلُّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط».

وبناء على هذا ردَّ ابن خلدون قصة العبَّاسة أخت هارون الرشيد مع جعفر البرمكي، وما زعمه الزاعمون من أنها سبب

نكبة البرامكة قائلاً: «وهيهات ذلك من منصب العبّاسة في دينها وجلالها... وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال، فلا يصل إليه...».

ويحكِّم ابن خلدون السنن الكونية في غربلة أخبار التاريخ، ويرد ما نقل عن المسعودي من أن الإسكندر لما صدته دوابُّ البحر عن ميناء الإسكندرية، اتخذ تابوتاً من خشب وفي باطنه صندوق من زجاج، وغاص فيه إلى قعر البحر حتى وصل حذاءَ دواب شيطانية، تعمل على صورتها تماثيل من أجساد معدنية، ونصبها حذاء البنيان، ففرَّت الدواب، حين خرجت وعاينت التماثيل التي نحتت على صورتها، ويقول: «في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة: من قبل اتخاذه التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه، ومن قبل أن الملوك لا تحمل نفسها على مثل هذا الضرر، ومن قبل أن الجنَّ لا يُعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها... وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية، والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله: وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه،

للتنفس الطبيعي، وتسخن روحه بسرعة لقلّته، فيفقد صاحبه الهواء البارد[1] المعدِّل لمزاج الرئة والروح القلبي، ويهلك مكانه».

ومن المؤسف أن جهود ابن خلدون في نقد الأخبار التاريخية لم تتم متابعتها وتطويرها، بل إن ابن خلدون نفسه لم يستفد ـ كما كان مأمولاً ـ مما سطَّره في مقدمته من أصول نقدية رائعة حين كتب تاريخه!.

٨ ـ لم نُرد من وراء كل ما ذكرناه عن طبيعة التأليف في التاريخ الحط من قدر التاريخ، ولا الحط من قدر المؤرخين، وإنما أردنا أن نوضح بعض المعالم التي تساعد على تكوين خلفية ثقافية لدى من يطالع في كتب التاريخ، على أمل أن يكمل القارئ دور المؤرخ؛ فالكتاب التاريخي ـ كأي كتاب آخر ـ لا يؤدي رسالته المعرفية من غير تلقٍّ حسن من قرائه.

إن النص التاريخي لا يكون في العادة نصاً صعب القراءة، فهو يقوم على السرد المباشر، ولذا فإن جهد القارئ

---

(١) يعني ابن خلدون بهذه الفقرة نفاد كمية (الأوكسجين) المتوفرة داخل الصندوق الزجاجي، وهو ما يعني بالطبع الاختناق.

قراءة محورية أو تحليلية، ينبغي أن يتركز على معرفة الكاتب الذي يقرأ له، وعلى طبيعة الأحداث التي يتحدث عنها الكاتب، وما عسى أن يؤثر فيها من عوامل وحيثيات مختلفة.

إن مما يساعد القارئ في كتاب تاريخي على فهم عميق ومتوازن أن يقوم بطرح سلسلة من الأسئلة، ثم يحاول التماس أجوبة لها بغية إيجاد طيف من الوعي حول المؤرخ والكتاب الذي يقرؤه، وذلك من نحو:

أ ـ هل المؤرخ ذو صبغة مذهبية معينة، هل هو مثلاً حنفي أو شافعي، وكتابه في طبقات الفقهاء؟ هل هو ذو اتجاه (ليبرالي) وكتابه في السياسة أو الاقتصاد؟ هل هو ذو اتجاه عقلي حاد، وكتابه يعالج نصوصاً تراثية في مجال من المجالات...؟

إذا كان الأمر كذلك أو قريباً منه فإن من العسير جداً على المؤلف أن يقدم رؤية منصفة ومتوازنة للموضوع الذي يعالجه؛ ولو أنك نظرت في كتب طبقات الشافعية أو الحنابلة أو الحنفية ـ مثلاً ـ لرأيت العجب العجاب من الثناء على أبناء المذهب، والتماس الفضائل لهم؛ مهما تكن بعيدة. ولو نظرت في

المقابل فيما يقوله بعض المؤرخين في أعلام يخالفونهم في المذهب، لوقفت على صور مدهشة من التحيز والانقياد للهوى؛ على نحو ما نجده في تاريخ بغداد عند الحديث عن ترجمة أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ففي تلك الترجمة من التشنيع على أبي حنيفة وأصحابه ما لو قيل في يهودي أو نصراني لكان كثيراً[1]!.

ب ـ هل البيئة التي ينتمي إليها المؤرخ بيئة مغلقة، يسود فيها التفكير النمطي، حيث يجري اختصار كل تنوعات الوجود، لتتطابق مع عدد محدود من المفاهيم والعادات السائدة فيها، وحيث المرتع الخصب للشائعات والتعصب. . . أو أن المؤلف ينتمي إلى بيئة مفتوحة، تختلط فيها الأعراق والأجناس والثقافات. . .؟

هل المؤلف ممن رحل خارج بلاده، أو أنه محلِّي العلم والثقافة والخبرة؟.

---

(١) نقول هذا بقطع النظر عما إذا كان ذلك من كلام الخطيب البغدادي (الشافعي) أو كان مدسوساً عليه؛ فالمهم أن الكلام منشور ويقرؤه الناس من نحو عشرة قرون.

هل كان المؤلف حين كتب كتابه يمر بأزمة حادة، فيغلب على تصويره للوقائع روح التشاؤم، أو أنه يمر بحالة ازدهار وانتصار، فيغلب على عمله طابع الاستبشار والتفاؤل؟.

ج ـ علينا أن نتساءل: هل المؤرخ ممن يحاول أن يترك مسافة واعية بين رأيه الشخصي وبين الأحداث التي يؤرخ لها، أي يحاول ألا يدمج بين رؤيته الشخصية للحدث وبين مفرداته وحيثياته، أو أنه يحلل الخبر وينقده، ويتخذ في النهاية موقفاً محدداً منه؟.

إن الناظر في أعمال مؤرخينا القدامى يجد أنهم ـ في أكثر الأمر ـ كانوا حريصين على التزام نوع من الحياد تجاه الوقائع التي يسجلونها. ومع أن الحياد التام غير ممكن إلا أن محاولة الالتزام به لا بد لها أن تثمر درجة من الفصل بين الذات والموضوع.

د ـ هل المؤرخ على دراية حسنة بما يكتب عنه، وهل مصادره التي اعتمد عليها موثوقة، وهل قرأ المراجع التي نقل عنها على الوجه الصحيح؟.

إن أكثر مؤرخينا قد حشروا في كتبهم الغث والسمين، وحاول كثير منهم أن يذكر رجالات الإسناد للحوادث التي أرَّخ لها؛ ليقول لنا: إن العهدة على الراوي، وليقول: ابحثوا عن ذلك الراوي؛ وقد نقل شيخهم الطبري عن متعصبين محترقين كأبي مخنف، وعن بعض المعتدلين مثل سيف بن عمر، وعن الأثبات الثقات، وفعل كثير من المؤرخين نحواً مما فعل.

علينا إلى جانب هذا أن نتساءل: هل المؤرخ معاصر للأحداث التي يتحدث عنها، وإذا كان كذلك، فهل المعاصرة كانت عاملاً إيجابياً في توثيق عمله، أو أنه وقع تحت ضغوط معينة، أو كان جزءاً من صنَّاع تلك الأحداث، فيكون ذا مصلحة في إخراجها على نحو معين؟.

هـ ـ هل المؤلف يكثر من التفاصيل الدقيقة في رواياته، أو أنه يكتفي بالوقوف عند أصول الأخبار والوقائع؟.

إن معرفة الإجابة على هذا السؤال مهمة، حيث لا يقع التحريف والخلط والوهم والمبالغة في الخطوط العريضة للواقعة ـ غالباً ـ وإنما يقع في التفاصيل الدقيقة والجزئيات والحيثيات والتفسيرات التي يسوقها المؤلف، وهذا يعني أن

نلزم جانب الحذر عند قراءتها.

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي اتخذت من الحوادث التاريخية موضوعاً لها، لا تهتم بالتفاصيل ـ غالباً ـ وإنما تتوقف عند أساسيات الواقعة، وعند المغازي والعبر والدروس المستفادة منها، ولو أن المؤرخين اتبعوا ذلك المنهج لتوقَّوا الكثير من الخلط الذي وقعوا فيه. وواجبنا نحن أن نستفيد من هذا المنهج، ونستشف من مراميه ومعطياته ما يزيدنا بصيرة.

إن الوعي بطبيعة أية قضية، يظل هو الخطوة الأولى على طريق التعامل معها، وإن القارئ في التاريخ وفي غيره بحاجة إلى امتلاك رؤية شاملة لوضعية العلم الذي يقرأ فيه، حتى يجني من قراءاته ما يعود عليه بأكبر نفع، وحتى يتقي الأعراض الجانبية الضارة التي تصاحب كل معرفة.

* * *

الخاتمة

كان القصد الأساسي من وراء هذه الرسالة تعزيز الاهتمام بممارسة القراءة واصطحاب الكتاب، بالإضافة إلى تحسين فعل القراءة، واستثماره على أفضل وجه ممكن.

ولا يخفى أن ما ذكرناه هو النموذج الأرقى في تنظيم الجهود القرائية، وسيكون بإمكان كل قارئ أن يقترب من ذلك النموذج على مقدار ما تسمح به إمكاناته وظروفه؛ وكما أشرنا من قبل فإنه مع أن ثمة مفارقة أبدية بين النظرية والتطبيق إلا أن توضيح الحد الأقصى للكمال يظل مهماً حتى يتنافس في الوصول إليه المتنافسون.

إنني أعتقد أننا سننال من القراءة أكثر كلما كان وعينا بما نريده من ورائها أكثر نضجاً وتنظيماً؛ وهذا ما قصدنا إليه هنا أيضاً.

وأسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يلهمنا الصواب في الأمر كله، وأن يهيئ لأمة الإسلام سلوك سبل الرشاد؛ إنه ولي التوفيق والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

مراجع مختارة

- إدارة الوقت، تحرير (دايل تيمب)، ترجمة د. وليد هوانة، نشر معهد الإدارة العامة بالرياض عام ١٩٩١م.

- الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، تأليف (لويس دوللو) ترجمة د. عادل العوا. منشورات عويدات - بيروت - باريس، ط ثانية ١٩٨٢م.

- حول التربية والتعليم تأليف د. عبد الكريم بكار، دار المسلم - الرياض، ط أولى ١٤٢٠هـ.

- العَلَم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ، تأليف صالح المقبلي، المكتبة اليمنية - صنعاء - ط ثانية عام ١٩٨٥م.

- فصول في التفكير الموضوعي د. عبد الكريم بكار، دار القلم - دمشق، ط أولى عام ١٤١٣هـ.

ـ فن الدراسة والإيصال، إعداد د. بهيج ملاحويش، مطابع ديداكو ـ إسبانيا، ط ثانية عام ١٤١٨هـ.

ـ القراءة أولاً، تأليف محمد عدنان سالم، دار الفكر ـ دمشق، ط أولى عام ١٤١٤هـ.

ـ القراءة: البدء والاستمرار، إعداد يوسف العتيق، دار الصميعي ـ الرياض، ط أولى عام ١٤١٢هـ.

ـ كيف تقرأ كتاباً، تأليف (مورتيمر آدلر) و(تشارلز فان دورن) ترجمة طلال الحمصي، نشر الدار العربية للعلوم ـ بيروت، ط أولى عام ١٩٩٥م.

ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي، تأليف د. محمد فتحي عثمان، دار النفائس ـ بيروت، ط أولى ١٤٠٨هـ.

ـ مدخل إلى التنمية المتكاملة، تأليف د. عبد الكريم بكار، دار القلم ـ دمشق.

ـ المدرَك والغامض، تأليف د. مختار بدر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، ط أولى عام ١٩٩٥م.

ـ معايير الفكر العلمي، تأليف (جان فورا ستيه) ترجمة

فايز كم نقش، نشر عويدات ـ بيروت ـ باريس، ط ثانية، عام ١٩٨٤م.

ـ المعلم أمة في واحد، تأليف (إيرل بولياس) و(جيمس يونغ)، ترجمة إيلي واريل، نشر دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

ـ المفكرون العرب ومنهج كتابة التاريخ، تأليف وليد نويهض، نشر دار ابن حزم ـ بيروت، ط أولى، عام ١٤١٧هـ.

ـ مقدمة ابن خلدون، تحقيق المستشرق الفرنسي (كاترمير)، مكتبة لبنان ـ بيروت عام ١٩٧٠م.

ـ نصر بلا حرب، تأليف الرئيس الأمريكي الأسبق (ريتشارد نيكسون)، إعداد عبد الحليم أبو غزالة، نشر مركز الأهرام للترجمة ـ القاهرة، ط أولى، عام ١٤٠٩م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *

آثار المؤلف

١ ـ الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي (دكتوراه) مخطوط .

٢ ـ أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها مخطوط .

٣ ـ القواعد والإشارات إلى أصول القراءات (تحقيق) ـ دمشق ، دار القلم .

٤ ـ رد الانتقاد على الشافعي في اللغة (تحقيق) ـ بريدة ، دار البخاري .

٥ ـ أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي ـ دمشق ، دار القلم .

٦ ـ المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح ـ دمشق ، دار القلم .

٧ ـ الصفوة من القواعد الإعرابية ـ دمشق ، دار القلم .

٨ ـ ابن عباس مؤسس علوم العربية ـ جدة ، دار السوادي .

٩ ـ فصول في التفكير الموضوعي ـ دمشق ، دار القلم .

١٠ ـ نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي ـ دمشق ، دار القلم .

١١ ـ من أجل انطلاقة حضارية شاملة ـ دمشق ، دار القلم .

١٢ ـ مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ـ دمشق ، دار القلم .

١٣ ـ مدخل إلى التنمية المتكاملة ـ دمشق ، دار القلم .

١٤ ـ حول التربية والتعليم ـ الرياض ، دار المسلم .

١٥ ـ في إشراقة آية ـ أبها ، دار هجر .

* * *